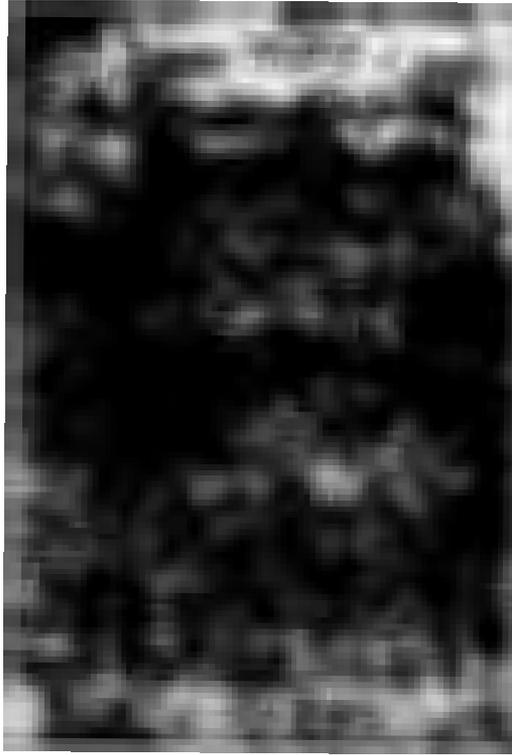


## حمامات الاسكندرية الرومانية

للدكتور فوزى عبد الرحمن الفخراني

لم تتل حمامات الاسكندرية الرومانية من الباحثين أى قدر يذكر من دراساتهم حتى تكاد تخلو الكتب العديدة التى نشرت عن الاسكندرية باللغات المختلفة - رغم استرسالها فى وصف المدينة ، وآثارها ما قام منها وما اندثر - من الاشارة الى أى من حمامات المدينة وأضحى ما اكتشف بالمدينة من حمامات فى طى النسيان . هذا كله على الرغم من المرات العديدة التى انفردت بها حمامات الاسكندرية فى اختلاف أشكالها وتباين أغراضها مما لم يعرفه العلم عن حمامات الرومان فى أى مكان آخر ، سواء فى ايطاليا أو فى أى من الولايات الرومانية العديدة بما فيها مصر نفسها .

فى روما عاصمة الامبراطورية التاسعة ، اُسِّمَت حمامات الأباطرة (١) نيرون وتراجان وكارا كالا (شكل ١) وديوقنديانوس بالضخامة ، فلم تكن الحمامات مجرد أماكن للاستحمام والاعتسالم فحسب بل كانت بها أيضا الحدائق والملاعب الرياضية والمكتبات الى جانب صهاريج المياه وما الى ذلك . أما الحمامات الرومانية التى بنيت فى الأقاليم مثل حمامات بومبي (٢) وهركولانو (٣) بايطاليا أو حمامات الولايات الرومانية مثل حمامات ليقس ماجنا (ليدا) بفييا (٤) المعروفة باسم حمامات الصيد نسبة لمناظر الصيد المرسومة بها . فلقد كان الاستحمام فى هذه الحمامات على مراحل يمر فيها المستحم بحجرة لتخلع الملابس وكانت تحفظ فى فتحات صغيرة مستطيلة محفورة بالحيطان . وتعرف هذه الحجرة باسم apodyterium . ثم حجرة بها حوض للماء البارد تعرف باسم tepidarium فحجرة الهواء الساخن وتعرف باسم tepidarium وحجرة أخيرة بها حوض للماء الساخن اسمها caldarium . ولقد اُسِّمَت بعض هذه

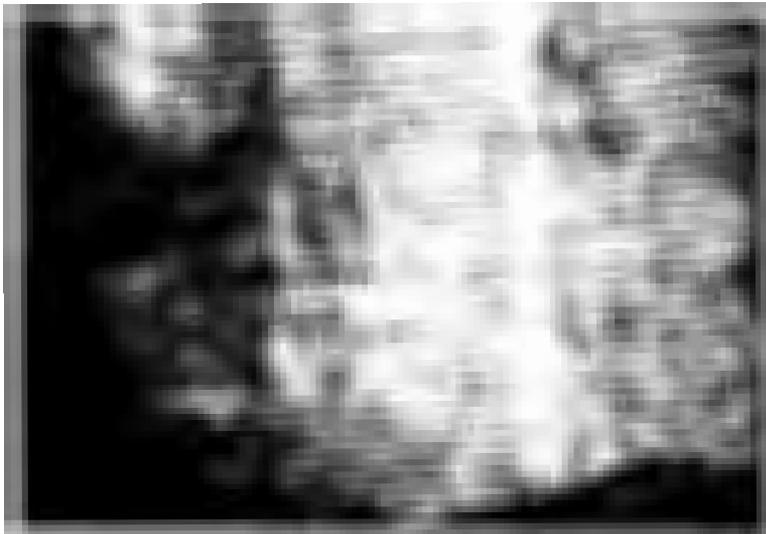


عن كتاب : Sir B. Fletcher - History of Architecture  
(شكر ١) حمامات داراكنة برومي  
نوع أفقر بين توزيع أخيرات المنطقة بالحمامات

الحمامات مثل حمام ستايرا برومبي (٥) (شكل ٢) لتضم بين جنباتها  
ملعبا palaestra وحوضا للسباحة natatio . وكانت هناك حمامات للرجال  
وأخرى للنساء منفصاة كما في هركولانو أو متصاة ببعضها كما في حمامات  
برومبي (٦) . كما كانت هناك حمامات بسيطة مثل حمامات تمجاد بشمال أفريقيا  
وهي مشتركة في استعمالها بين الرجال والنساء ولكن في أوقات مختلفة (٧) .  
ولقد أمعنا الحظ حديثا باكتشاف حمام بالاسكندرية من هذا النوع  
المعروف في الأقاليم الرومانية وذلك في الحفائر التي تجريها حاليا البعثة  
البولندية للأثار بمنطقة كوم الدكة ، وأبت أن أطلق عليه اسم المنطقة وأشره  
هنا لأول مرة .

## حمام كوم الدكة (أ) .

يتفق هذا الحمام والنوع الشائع استعماله من الحمامات الرومانية في الأقاليم بإيطاليا كما تبدو في حمامات بومبي وهركولانو إلا أن حمام كوم الدكة أصغر منها حجماً وأقل زخرفة . كما أنه قد تهدم ولم يبق الا تخطيط له مع الحدران بارتفاع يقرب من متر ونصف . ولقد تهدمت الأرضية في بعض الحجرات ولم يبق من زخرفتها الى أجزاء صغيرة من المزايكو وجدت في الانقاض المحاورة للحمام ومحفوفة الآن . متحف الاسكندرية اليوناني الروماني كما أن محتويات الحمام الأخرى قد أندثرت . والحمام من الحجم الصغير يتقصر الملعب palaestra وكذلك حوض السباحة natatio وحجرة خلع الملابس apodyterium وحجرات الادارين وما الى ذلك من الحجرات التي كانت تفتح في حمامات ستابيا بومبي مثلاً على الملعب . وحمام كوم الدكة ليس مزدوجاً بمعنى أنه ليس به جناح خاص بامتحمام الرجال وآخر خاص بالنساء بل ربما كان الحمام مقصوداً على الرجال دون النساء أو العكس أو ربما استخدمه الرجال مثل حمام تمجاد في أيام وساعات تختلف عن تلك التي تستخدمه النساء فيها . ويظهر من حجم الحمام وصغره وموقعه المتوسط بمدينة



(شكل ٢) حمامات ستابيا بومبي (في نابولي)

تتبع أفقى بين توزيع الحجرات المختلفة كما يوضح حمامات الرجال وحمامات النساء  
Mau "Pompeii"

الاسكندنرية بعيداً كما يبدو عن ثكنات الجنود الرومانية أن الحمام لم يكن مخصصاً للجنود كذلك الحمامات الرومانية التي نراها بانجلترا على طول الحائط الروماني الذي بناه الامبراطور هادريان بين مدينتي نيوكاسل على بحر الشمال وماري بورث على البحر الايرلندي ليصد عن بريطانيا الرومانية هجمات الاسكتلنديين . وربما كان الحمام عامارغم صغر حجمه ويستبعد أن يكون خاصا لعدم وجود بقايا منازل بجواره .

وحمام كوم الدكة لايتعدى الخمسة عشر متراً في طوله والستة أمتار في عرضه ويفتح بابُه العام نحو الشمال كما تقع حجراته الثلاثة في صف واحد والحجرات تكاد تكون متساوية في أحجامها أما الحيطان فبذبة عند أساساتها من كل مربعة الشكل من الحجر الجيري حجم كل منها ربع متر مكعب تقريباً وتعلو هذه الكتل صفوف من قوالب الأجر الأحمر المحروق الذي لم يكن معروفاً قبل عصر الرومان في مصر (٩) . واستخلعت المونة للصق الأحجار ببعضها في اقامة الحيطان وكذلك في تثبيت زخارف التيفساء (المايكون) التي توجد بماياها في حجرة الفرعجيداريوم . وسقف الحمام مهدم كما أنه لم يبق من حيطانه ما يزيد عن المتر ونصف تقريباً ارتفاعاً .

يفتح الباب الخارجي للحمام على حجرة الماء البارد *frigidarium* مباحرة وهو يقع في الجانب الشرقي من الحائط الشمالي لهذه الحجرة . أما الحجرة نفسها فمربعة الشكل وتبلغ الأربعة أمتار ونصف تقريباً في أبعادها . ولقد حفر في الجزء الغربي من أرضيتها (وهو الجانب البعيد عن الباب) حوض للماء البارد تاركاً جزءاً من أرضية الحجرة يبلغ العشرة سنتيمترات تقريباً بينه وبين الجوانب الشمالية والغربية والجنوبية للحجرة . والحوض في جانبه الغربي يمتد بطول حائط الحجرة ، ويبلغ ٤ أمتار تقريباً بينما يمتد في عرضه الى مسافة مترين ، وعمقه متر تقريباً وهو مغطى بطبقة سميكه من المصيص المزوج بمحروق الرخام حتى يمكن صقل السطح فلا يصاب المستحم بأذى ، كما يكسب الحوض متانة ، ويحفظ المياه من التسرب . ويستخدم المستحم ثلاثة درجات مبنية في الركن الجنوبي الشرقي للحوض للترؤل فيه . وفي هذا السلم دليل آخر يشير الى أن بناء الحمام قد تم تحت حكم الرومان . اذ تمير بالخصائص المعروفة عن السلام الرومانية كما عرفناها في فيلا مينوي *Villa Minori* الواقعة

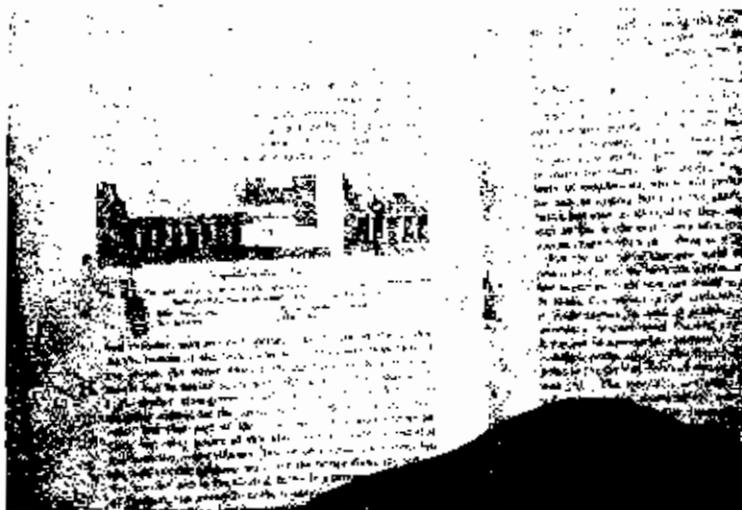
على الطريق بين سالرنو وسورنتو بإيطاليا ، وكما نراها ممثلة في الاسكندرية في جبانة كوم اشفافة الرومانية . ففي كل هذه السلاسل نجد أن الدرجة السفلى أكثر ارتفاعا ، ويقل ارتفاع الدرجات كلما صعدنا حتى يكاد ينعدم هذا الارتفاع في الجزء العلوى من السلم . والغرض من ذلك أن المرء يكون أكثر نشاطا وقدرة عند البدء في الصعود بينما يأخذ منه الجهد كلما صعد ولهذا قل ارتفاع الدرجات حتى يكاد لا يشعر الصاعد بارتفاع الدرجات أثناء صعوده ، بل يحس وكأنه يسير في منحدر . ويشير استخدام المصيص الأبيض مما فيه مسحوق الرخام الى عصر مبكر من حكم الرومان لمصر ، وربما كان ذلك في القرن الأول الميلادى ، اذ ندر استخدام الرخام في مزيج المصيص بعد ذلك التاريخ ، بل يكاد يخلو التكو ( المصيص ) الرومانى كلية من الرخام في القرن الثانى الميلادى في مصر ، كما نرى في قطع الرخارف البارزة من هذه المادة المحفوظة بالمتحف .

ولقد غطى جزء من أرضية الحجرة تجاه الباب ببعض قطع المزايكو ( البلاط ) وربما كان ذلك في عصر لاحق ، اذ أنه ليس كالمزايكو المعروف في العصر الرومانى بل عبارة عن قطع كبيرة الحجم كما أنها وليست ملونة أو من جزئيات صغيرة كما نرى مثلا في القطعة الصغيرة ذات رسوم الأفراد المكتشفة قرب الحمام تجاه حجرة التبادريوم tepidarium .

وفي مواجهة باب الفريجيدياريوم في الحائط الجنوبي لهذه الحجرة يقع الباب الذى يفصل بين الفريجيدياريوم والتبادريوم . وهي حجرة الهواء الساخن . وهذه الحجرة تنوء على شكل محراب niche في حائطها الغربى إتساعه متر تقريبا . والحجرة أصغر قليلا من حجرة الفريجيدياريوم (اذا لا يزيد حائطها الغربى عن الثلاثة أمتار ونصف تقريبا) وربما كان ذلك لكي تحتفظ الحجرة بحرارتها ولا تفقدتها بسهولة . ووجود niche في هذه الحجرة شيء معروف في tepidaria كما نراها في حمامات بومبي . وفي الغالب يكون له niche سقف مقبب semi - dome بأعلاه نافذة تسمح لهواء الحجرة بالتجدد ، كما تعمل على مرور الضوء الى داخل الحجرة أسوة بما نراه في حمام الفورم بومبي وحمام ستابيا .

ولقد غطيت جدران هذه الحجرة برسومات من الفرسكو . ويبدو أن الأكران الحمراء والصفراء والسوداء والزرقة على طبقة المصيص المزوج محروق الرخام الذي يغطي حيطان الحجرة كما أنها لا تزال ترى بالقرب من niche على الحائط الغربي في الجزء القريب من حجيرة الماء الساخن (caldarium) رسماً تخطيطياً لعمود على الطراز الكورنثي .

ومما يسترعى الاهتمام في هذه الحجرة أرضيتها والحائط الغربي لها ( المبنية بقوالب الأجر الخروق ) وهي الحائط الخارجية للمحمام كما يبدو . فلقد بنيت الأرضية على طريقة الخدمات المتعلقة بـ Balneae pensiles وهي الطريقة التي ابتكرها معاصر شيشرون تسمى sergias Onna واستخدمت منذ القرن الأول ق.م (١٠) . والفكرة في هذه الطريقة هو السماح للأرضية بأن تشع الحرارة بالتساوي في حجيرة البنداريوم وذلك عن طريق تمرير الهواء الساخن في فراغ يترك تحت الأرضية . لهذا كانت تصنع الأرضية من طبقة سمكها ستة سنتيمترات تقريبا من الطين المحروق المعروف باسم التراكوتا . وكانت ألواح



(شكر ٣)

فتدح رأس في حمامات سنايازين المصحات التي تبين أوضاعها كالحجيرة أو البنداريوم وأنواع  
من المصحات التي بنيت تحت الأرضية

عن كتاب : "Mau "Pompeii"

التراكوتا المكونة لهذه الطبقة تعرف باسم tiles . وكان كل لوح من هذه tiles حوالي نصف متر مربع في مساحته ، ويرتكز على قوائم pilasters مربعة في مقطعها (شكل ٣) . وتبلغ في حمام كوم الدكة حوالي النصف متر في ارتفاعها والربع متر مربع في مقطعها . ولقد زالت الأرضية في حمام كوم الدكة ولكن لازال بعض هذه القوائم في مكانه وكان الهواء الساخن يمر من فتحة مستديرة قطرها نصف متر تقريباً حفرت تحت الباب المتسع الذي يقع في منتصف الحائط الجنوبي لهذه الحجرة والذي يفصل بينها وبين حجرة الماء الساخن (الكالداريوم) . والملاحظ أن بينها نجد الباب الفاصل بين التبداريوم والكالداريوم متساوي ويقع في منتصف حائط حجرة التبداريوم الجنوبي ، نجد الباب الفاصل بين التبداريوم والفرجيداريوم ضيقاً ويقع في الركن الشرق من الحائط الشمالي لحجرة التبداريوم . والغرض من ذلك هو العمل على مرور أكبر كمية من الهواء الساخن من حجرة الكالداريوم الى حجرة التبداريوم ثم الاحتفاظ بهذا الهواء دون التسرب بسهولة الى حجرة الفرجيداريوم . وزيادة في الحيلة حتى لا يتسرب الهواء الساخن ويبقى أطول مدة ممكنة في حجرة التبداريوم وكذلك في حجرة الكالداريوم بحيث الحيطان الخارجية للحجرتين أي الحائط الغربي لكل منهما من قوالب الأجر المحروق مع ترك فجوات فارغة من البناء بين قوالب الأجر المصنوعة منها هذه الحيطان ليتخللها الهواء أي بطريقة أشبه بزجاجة « الترموس » الآن . وهذه الفجوات مستطيلة الشكل وتمتد عميقاً في الحائط وبارتفاعها ولقد استعملت هذه الطريقة في الحمامات الرومانية منذ عصر الجمهورية . وربما (١١) كانت أرضية الحجرة مزخرفة بالمرابيكو إذ أن القطعة المكتشفة تجاه هذه الحجرة خارج الحمام والمحفوفة بالمتحف هي من نوع الـ tiles ولقد صور عليها شخص رافع يده وظهور وجه شخص آخر بجواره .

أما الحجرة الأخيرة فتقع في جنوب الحمام وهي حجرة الماء الساخن (caldarium) تلك الحجرة التي بها الفرن hypocaustis وكان يقع هذا كما يبدو في الركن الجنوبي الشرق من الحجرة . والكالداريوم أصغر الحجرات

ولا يزيد عرضها عن ثلاثة أمتار تقريبا . ويلاحظ في الحائط الشمالي للحجرة على يمين الباب عند الدخول وجود حفرة منتظمة بارتفاع الجزء المتبقى من الحائط وتكاد تكون باتساع المسافة التي بين الباب والحائط الغربي مع ترك ١ متر من الحائطين . وربما كان يثبت في هذه الفتحة حوض للماء الساخن ( مغطس ) للمستحمين أو ربما كان المستحم يقف في هذه الفتحة وتصب المياه عليه من أعلى كما هو الشأن في حمام تل أتريب الذي لم ينشر بعد (شكل ٤) . ولكنني أرجح الاحتمال الأول « أى تثبيت حوض للماء الساخن » كما هو متبع في حمامات ستاياا والعموم بيومبي



(شكل ٤) حوض في حمام تل أتريب

أما مياه الحمام فلقد أتت من بئر أو صهريج منى أيضاً بالأجر الأحمر ويقع بجوار الحمام قناه في اتجاه الحمام وتخرج منه ربما كانت متصلة بالقناة التي تخرج من الحائط الغربي للكالدانيوم .

ويقارب هذا الحمام الذي اكتشف في كوم الدكة حماما آخرأ اكتشف منذ زمن بعيد بالقرب من القنصلية الإنجليزية وفي غربها (١٢) (ولكنه اندثر الآن) . ولقد عرف هذا الحمام بأسم « حمامات كليوباترة » أو « قصر كليوباترا » ومبنى بكتل من الحجر الجيري تعلوها حيطان

من الآجر المحروق . والحمام مستطيل الشكل ويشغل مساحة قدرها ١٥٠ متراً مربعاً . كما أنه يتكون من طابقين تحت السفل منها في الصخر . وتوجد بأسفل أرضيته الأفران . بينما بنيت أرضية الطابق العلوي من عرائع أو ألواح من التراكوتا ( الطين المحروق ) تعرف باسم Tiles حتى تسمح للحرارة بأن تنفذ من خلالها فتفرغ درجة الحرارة بالحجرات كما شاهدنا في حجرة التبداريوم في حمام كورم الدكة . وكانت هناك أنابيب تحمل المياه إلى الحمام من الخزانات .

ولقد انتشر بلاسكندرية حمامات ساخنة كثيراً ما كانت تزخر بزخرفتها وبما تضمه بين جدرانها من تماثيل وأعمال فنية كما كان في حمامات إيطاليا . ولقد عرفت بعض الحمامات باسماء التماثيل المشهورة (١٣) التي بها ، فثلا هناك حمام اياسوس (وهي ربة من ربوات اليم) وحمام الحصان وحمام هيجيا (نسبة إلى الهة الصحة) وحمام الجعران وما إلى ذلك ..

وكما قامت في إيطاليا الحمامات العامة كحمامات بومبي وهركولانو على نظام المراحل في الاستحمام بين الماء البارد والبخار والماء الساخن كذلك قامت الحمامات الخاصة على نفس الطراز كما نراها في حمام فيلا بوسكوربالي قرب نابولي (١٤) وحمام منزل الكريستوبورتيكو Cryptoporticus في شارع Via dell' Abbondanza في بومبي (١٥) . ففي كل من هاذين التماثيل مثلاً نجد الحمام قد أخذ بنظام المراحل ، فهناك حجرة للماء البارد وأخرى للبخار وثالثة للماء الساخن ..

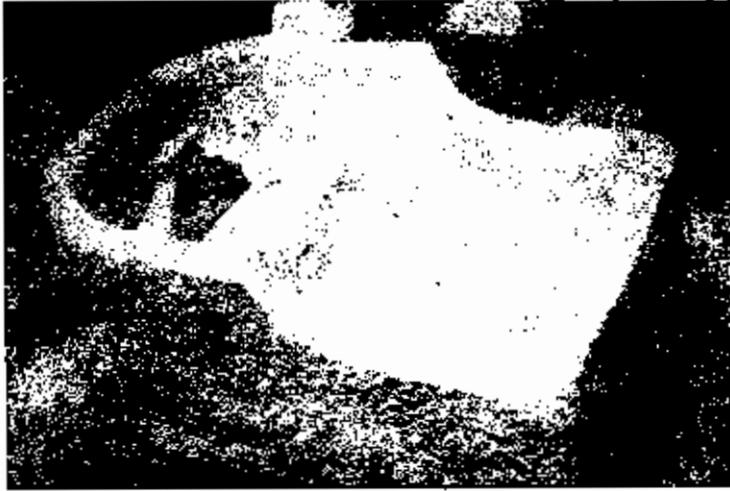
ولكن في ذلك اختلفت حمامات الاسكندرية الخاصة إذ اكتفى الأثرياء من سكان المدينة باستخدام الأحواض (بانيو) للاستحمام في منازلهم . وهذه الأحواض تقارب في شكلها أحواض الاستحمام المستعملة في المنازل حديثاً . فكان بعضها مستطيل الشكل أو بيضاوي كتلك الأحواض الموجودة بالمتحف اليوناني الروماني (شكل ٥) . وبما يلفت النظر أن الأحواض التي اكتشفت



(شكل هـ) حوض الاستحمام المسمى كابتوت من ساحة الورديان بمحورط بالمتحف الرومانى

من هذا النوع مصنوعة من البازلت الأسود الذى طالما استخدمه الفراعنة منذ أقدم العصور على أوسع نطاق سواء فى مبانيهم العامة أو فى عمل تماثيلهم وما الى ذلك من الأعمال الفنية . كما أن توفره فى البلاد يعطى هذه الأحواض المكتشفة بالاسكندرية طابعها المصرى . وبما يسترعى الاهتمام أن الحوضين الموجودين بالمتحف قد اكتشفا فى جبانة الورديان حيث استعملتا كتوابيت . ولكن فى اعتقادى هناك أدلة تشير الى أن هذه التوابيت كانت مستخدمة فى البدء كأحواض للاستحمام . وابتز هذه الأدلة أن لكل حوض فى جانبه الطويل من أسفل فتحة لتصريف المياه زخرفت بنحت بارز من نفس حجر البازلت الأسود على شكل رأس فهد . كما أن الغطاء الذى صنع لكل تابوت لم يصنع من نفس البازلت الأسود بل استخدم لذلك مثلا الجرانيت أو خلافه وهذا طبعا يشير الى أن الغطاء صنع فى وقت آخر غير الوقت الذى صنع فيه الحوض . ولقد حليت الجوانب الطويلة لكل حوض بنحت بارز من نفس حجر البازلت الذى صنعت منه الأحواض ويمثل رأسا للسرور وهى فاخرة النعم . ولقد امتازت هذه الأحواض بنسبها المحكمة وسطحها المصقول.

بما عرف عن الفن المصري من اتقان في الحفر ، والدرجة العالية في صقل  
السطح للأعمال الفنية المصنوعة من الأحجار الصلبة منذ عصور ما قبل التاريخ  
كما نرى في أواني ذلك الزمن .



شكل ٦ : حوض من شكل المقعد من ألكندرية محفوراً بالتحف اليوناني الروماني

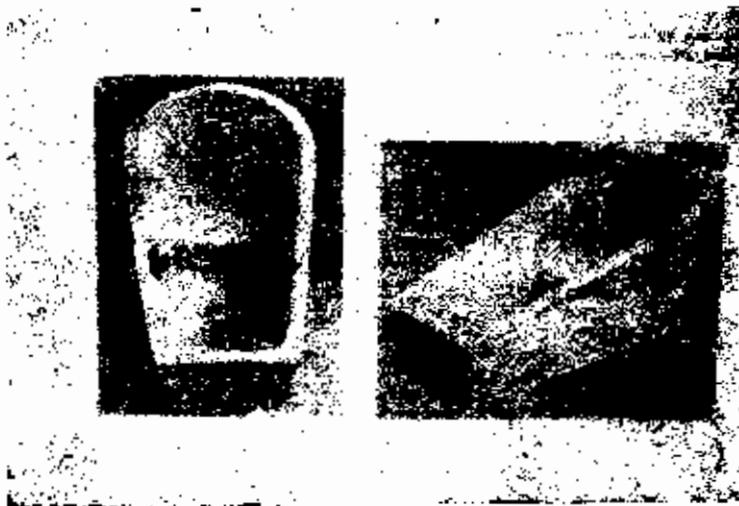
وقد تكون هذه الأحواض من نوع أشبه بالمقعد مما له من مسند للظهر  
والذراعين كالحوض المنحوت من الحجر الجيري والمكتشف بالاسكندرية  
(الآن بالتحف السكندرية ويحمل رقم ١٧٨٥٦) (١٧) (شكل ٦). ولهذا  
الحوض حافة حتى لا تنكب المياه وقت عملية الاغتسال . كما أن به انخفاض  
حيث توضع الرجلان وذلك لغسلها وهي تشبه في ذلك أحواض الأقدام المحفوظة  
بمخازن المتحف (شكل ٧) والشبيهة بأحواض الأرجل في حمامات ادفو  
(١٩) والكوم الأحمر (١٩) وغيرها من حمامات العصر الروماني بمصر .

وان كان الحوض ذو المسند هذا غير معروف في الحمامات الرومانية  
سواء تلك التي اكتشفت بايطاليا أو في غيرها من الولايات الرومانية  
المختلفة إلا أن أقرب الأحواض المعروفة لنا في شكلها لهذه الأحواض ذات  
المقعد هي التي اكتشفت في ميسيني (٢٠) Mycenae باليونان والتي ترجع



(شكل ٧) حوض لارتفاع مخروط بالكعب الخودو الروماني

الى عصر الحضارة الميسينية المرادف للدولة الحديثة بمصر (شكل ٨). ولكننا نتمتع في أحواض ميسيني مساند الفراعين كالتى نراها في حوض الاسكندرية

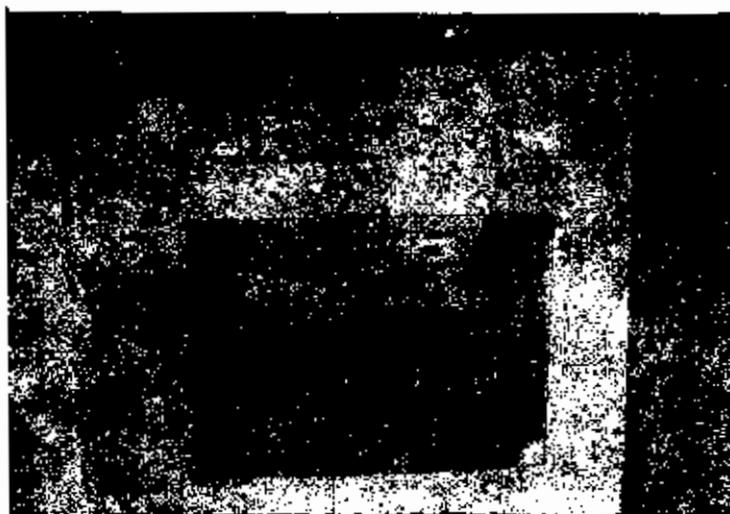


(شكل ٨) حوض للاستحمام من ميسيني اليونان نقلًا عن كتاب

Wiegand/Schrader "Priene"

ويبدو كذلك أن أحواضا قريبة في شكلها لهذه قد استخدمت في منازل برييني Prieno بأسيا الصغرى (٢١) والتي ترجع في تاريخها الى العصر الهلينيستي وكذلك منازل ديلوس التي ترجع الى القرن الثاني ق. م (٢٢) ، من ذلك اعتقد أن حوض الاسكندرية ربما ساد استعماله منذ العصر الهلينيستي واستمر استخدامه في العصر الروماني وأن كان في شكله الراهن لا نعرف له مثل بالضبط في أي من البلدان اليونانية أو الرومانية .

لم يكن استعمال هذا الحوض ذو المسند الخلفي الشبيه بالمقعد Fauteuil مقصورا على الحمامات الخاصة فحسب بل تعداها الى الحمامات العامة الدينية كما نرى مثلا في حمامات كوم النجيلة وولاد الشيخ قرب أبي المطاير (شكل ٩) وحمامات تابوزيريس ماجنا (أبو صير بالصحراء الغربية) وحمامات أبي مينا قرب العلمين ، وحيث أننا لم نعتد في الاسكندرية على المبنى الذي استخدم فيه هذا الحوض لهذا لا يسعنا الا أن نشير الى بعض الحمامات المكتشفة بمنطقة الاسكندرية كحمامات أبي صير وحمامات أبي قبر (كانوب قديما) ، حتى نستطيع أن نكون صورة لما كانت عليه تلك الحمامات



(شكل ٩) حمامات كوم النجيلة وولاد الشيخ قرب أبي المطاير نقلا عن

Breccia, "B. S. A. A.", 1921.

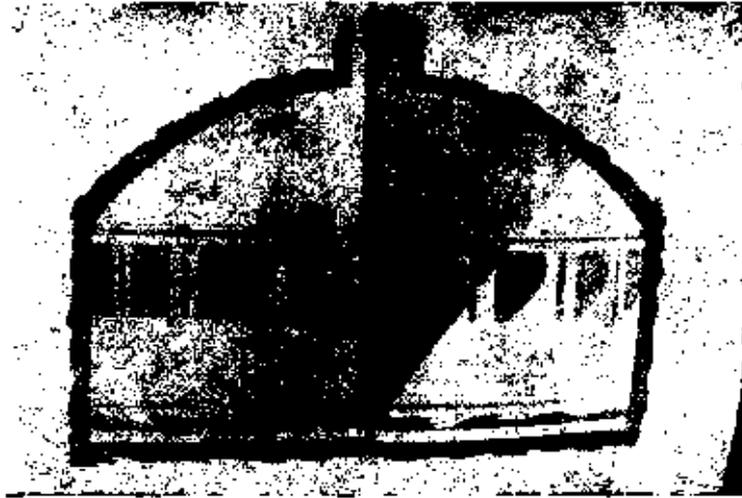
العامّة التي استعمل فيها مثل هذا الحوض وحتى تدبّن الأغراض التي قامت من أجلها مثل هذه الحمامات .

### حمام تابوزيريس ماجنا ( أبو صير بالصهراء الغربية )

صمم هذا الحمام (٢٣) على هيئة دائرتين كبيرتين حفرتا في الصخر ويربط الدائرتين ممر ضيق (شكل ١٠) وكان لكل دائرة سقف كبير على هيئة قبة مفتوحة في مركزها كما نرى مثلاً في معبد البانثيون بروما وكما نرى حالياً في قباب المساجد . ولقد ترك في القبة هذه فتحة متوسطة لتسمح بمرور الضوء والهواء إلى داخل الحمام . كما تركت في مركز كل دائرة مساحة خالية تحيطها الأحواض والغرض من ترك هذه المساحة هو سهولة الانتقال للأحواض وللممرات سواء تلك الواصلة بين الدائرتين أو بين أحدها والمباني المستطيلة الشكل الملحقة بها . أما الحيطان الرأسيّة لكل دائرة فلقد حفرت فيها على ارتفاع قائمة تقريباً خمسة عشر فتحة صغيرة مستطيلة الشكل (شكل ١١) . لم تكن هذه الفتحات لوضع أواني رماد الموتى بعد حرقها كما يدعى تيرش Thiersch (٢٤)



(شكل ١٠) حمام تابوزيريس ماجنا ( أبو صير )  
قطاع أفقى يبين توزيع الحجرات والأحواض



(شكل ١١) حمام نابوديزيس ماجنا (أبرصير)

نقلا عن قطاع رأسى يبين الفتحات التى بالحيطان لحفظ الملابس بعد غسلها عند الاستحمام

Braccia, B. S. A. A. 1921

ولكن تأييداً لبريتشا كانت هذه الفتحات بمثابة دواليب يضع فيها المستحم ملابسه وحاجاته حتى ينتهى من الاغتسال . فهى فى اعتبارى تشابه تلك الفتحات التى نراها فى حيطان الأبوديتاريوم فى حمام استايا (٢٥) أو السلداريوم فى حمام الفورم . كما أن فتحات المقابر التى تحفظ فيها زلع الرماد اتخذت فى العادة شكل نصف دائرة . وإن كانت هذه الفتحات صغيرة أيضاً إلا أنها مستطيلة الشكل .

وفى الحضرىات التى أجراها برتشا فى هذا الحمام اكتشف تحت هذه الفتحات الموجودة بالحيطان أحواضاً للاغتسال تشبه تلك الأحواض التى على شكل المقعد والمكتشفة بالاسكندرية وكوم النجيلة ولاد الشيخ . ولقد رصت هذه الأحواض فى مجموعتين تتكون إحداهما من ١٢ حوضاً بينما تضم المجموعة الثانية ثلاثة أحواض وتقع الأخيرة بين ممرين مقببين إحداهما مستقيم ومنخفض ومتصل بالممر الواصل بين الدائرتين أما الثانى وأن كان منخفضاً إلا أنه أكثر اتساعاً ومتصل بممر ينهى فى حالة إحدى الدائرتين

الى مباني مستطيلة ذات سقف مقبب وبها فتحة على هيئة عراب niche  
ربما وضع فيه تمثال. أما الاتصال بين الدائرة الأخرى والمبنى المستطيل الشكل  
الذى يقع بجوارها فمقطوع. وربما كانت المباني المتصلة بالمبنى المستطيل  
المتصل بالدائرة تمثل بعض مكاتب الإداريين إذ أن المدخل العمومى للحمام  
يفتح على المبنى المستطيل وعليه كان هذا المبنى المستطيل مكان تجمع  
للمستحمين. ومقارنة هذا الحمام بحمام أبي قير (كانوب) يمكن الجزم  
بأن هذا الحمام كان للاغتسال عند إجراء الطقوس الدينية أى بمثابة الميضة  
للموضوء عند المسلمين اليوم.

وفى اعتقادى يرجع هذا الحمام فى تاريخه الى العصر الإمبراطورى  
الرومانى وربما كان ذلك فى القرن الثانى الميلادى وان كان استخدام الحمامات  
الدائرية معروفاً فى مصر منذ نهاية العصر البطلمى (٢٦) ولكن استند الى أن  
القبة بهذا الشكل ظاهرة رومانية معمارية كما نراها فى الباثيون وفى حمامات  
كاراكلا مثلاً كما أن الـ niche بدت كظاهرة معمارية فى الحمامات  
الرومانية منذ عصر كلوديوس أو نيرون تقريباً كما تبدو فى حمامات بومبي.

#### حمام كانوب (أبو قير)

يقع هذا الحمام جنوب حصن توفيق (٢٧). ويختلف فى تصميمه عن  
حمام أبي صير فبدلاً من أن تكون الحجرات دائرية كما هو الحال فى أبي صير  
نجدها هنا مستطيلة الشكل وتضم ١٤ حوضاً مبنياً بقوالب الآجر المحروق بما  
يرجعها الى العصر الرومانى. وهى مغطاة بطبقة من المصبص حتى لا تسمح  
بتسرب المياه. وموزعة بحيث يضم كل جانب طولى كبير أربعة منها وثلاثة  
لكل من الجانبين القصيرين العرضيين. وتشبه هذه الأحواض تلك التى  
رأيناها فى كوم النجيلة ولاد الشيخ وتلك التى فى أبي صير. ولقد تهدمت  
الأجزاء العليا من الحيطان وكذلك المباني المجاورة. ولكن اكتشف بجوار الحمام  
مباغرة حوض كبير كما لو كان للباحة. واكتشفت فى الأراضى المحيطة  
بالحمام أربعة تماثيل من التراكوتا (الطين المحروق) تمثل الإله بس، وهى غير

مهذبة في صنعها من الظهور مما يشير بأنها كانت توضع وظهرها للحائط كما أن ارتفاعاتها متفاوتة تتراوح بين نصف المتر والمتر تقريبا . ويعلو تاج إحدى هذه التماثيل تحت للعجل أبيس في منظر جانبي . ويدل وجود هذه التماثيل بجوار الحمام على أن الحمام أقيم للاغتسال في المراسم والطقوس الدينية أما الحوض الكبير فهو بمثابة مغطس جماعي لغمر الأفراد أسوة بالتعميد عند المسيحيين إذ أن عملية التعميد بالغمر في المياه كانت منتشرة في الديانات اليونانية منذ العصر الهيلينستي . واستمرت عند الرومان وخاصة في مذهب New Pythagoreanism كما نراها ممثلة في الفن في أوائل عصر الامبراطورية الرومانية كما في سقف المهراب niche للصلاة الرئيسية في باسيليك بورتا ماجورى المبنيّة تحت الأرض في روما Undergraund basilica at Porta Maggiore (٢٨). أما الأحواض الأربعة عشر فرمما كانت حمامات لغسل الأرجل .



## ملاحظات

1. D.S. Robertson, "A Handbook of Greek and Roman Architecture", 2nd edition, Cambridge, 1940, pp. 254-262, fig. 110; Sir Banister Fletcher, *A History of Architecture on the comparative method*, 13th. edition, London, 1946, pp. 164-171.
2. Maria J. Sargienko, "Pompeii", 2. Auflage, Leipzig, 1954, pp. 205-222, fig. 64 for the Stabian Baths; fig. 85 for the Forum Baths; Amadeo Maiuri, "Pompeii", translated by V. Priestley, (Guide-Books to Museums and Monuments in Italy), 4th edition, Rome, 1949, pp. 29-32, fig. 5 for the Forum Baths.
3. Amadeo Maiuri, "Herculaneum," translated by V. Priestley, (Guide-Books to Museums and Monuments in Italy), 3rd edition, Rome, 1945, pp. 37-41, fig. 4.
4. J.M.C. Toybee and J.B. Ward-Perkins, "The Hunting Baths at Leptis Magna," With a survey by R. Fraser, Oxford, 1949.
5. August Mau, "Pompeii, its Life and Art," translated into English by F. W. Kelsey, new edition, New York & London, 1902, pp. 186-201.
6. Mau / Kelsey, *op. cit.*, pp. 202-207.
7. R. Cagnat et V. Chapot, "Manuel d'Archeologie romaine," 1, Paris, 1917, p. 214, fig. 111.

(A) لم اطلع ضم صورة الحمام ولا إحصاء المقاييس بدقة إذ أتى في انتظار تعريج إدارة البعثة الأثرية البولندية من وارسو .

9. Robertson, *op. cit.*, pp. 232, 233 ff.
10. Mau/Kelsey, *op. cit.*, pp. 187, 188; Cagnat/Chapot, *op. cit.*, p. 219, fig. 113.
11. Mau / Kelsey, *op. cit.*, p. 187.
12. Ev. Breccia, "Alexandria ad Aegyptum," English edition, Bergamo, 1922, p. 91.
13. Breccia, *op. cit.*, p. 91.
14. Cagnat et Chapot, *op. cit.*, pp. 210, 211, fig. 108.
15. V. Spinazzola, "Pompeii alla Luce degli Scavi nuovi di Via dell' Abbondanza" (Anni 1910-1923), 1, Roma, 1953, pp. 437 ff.
16. Breccia, *op. cit.*, p. 210 nr. 31; Ev. Breccia, *Le Musee greco-romain*, (1922-23), p. 17; A. Adrioni, *Repertorio d'Arte dell'Egitto greco-romano*, serie A, 1, Palermo, 1961, p. 31, nos. 35, 36.
17. Alexandria, the Graeco-Roman Museum, Invent. Nr. 17856, prov. Alexandria, Mex, matière : calcaire, mesure : 1,20 x 0,79, (Bain en forme de chaise.).

بها هنا التفاهر بمحو الالة الأعداء على أساس : أن تنقوا منهم نقاة : أي تحذروهم  
وتجنبوا الأذى منهم . ومن هنا يتبين أن الخوف والمحافظة على النفس في  
مواطن الخطر هما أساسا التقية وأن القرآن قد أباح للمسلمين - وخاصة  
المسلمين الأولين الذين عناهم هنا - الخائفين على ديمهم أن يتخذوا الكافرين  
أولياء : نقاة أو تقية « على أمل زوال الظروف التي دعهم الى هذه ضرورة .  
والضرورات تبيح المحظورات كما هو معروف .

ويجب أن نلاحظ أن « النقاة » أو التقية : هنا موصولة بالإيمان الباطني ،  
وأن الاسلام قد أقرها على هذا الأساس . وهدد أصحاب « النقاة » من  
المسلمين الأولين المضطهدين في مكة بالعقاب : ان لم يكن الإيمان منلبسا  
بالقلب - بختام الآية بعبارة : « والى الله المصير » وذلك وعيد صريح  
وتذكير بعد التحذير الأول .

ويحسن بنا أن نلاحظ أن التقوى والتقية - التي تتحد معها في الأصل -  
تتصلان بمعنى الاسلام ، فكلا المنطين في معناهما الاصطلاحي الاسلامي ،  
مرتبطة بالانقياد للقوة العظمى - قوة الله - فالتقوى من الاتقاء بمعنى  
النجاة - والتقية والتقوى متقاربتان في الأصل بل تعلمهما من أصل واحد -  
أي حماية النفس من قوة معينة . فهي متصلة بالخوف . وكذلك الاسلام  
يتصل بالتسليم والانقياد لهذه القوة وبالسلامة من غضبها وسخطها . ويحسن  
أن نضيف الى ذلك أن التأثير بالجمان عند العرب يتصرف الى هذه الرهبة  
والهبة لهذه القوة المجهولة واصطلحوا عليه بالروعنة وقالوا : هذا أمر رائع  
فالهبة التي تدل على الجلال - وهو متصل بالهبة والخوف نحو : أمر جل -  
والاسلام والتقوى والتقية كلها متصلة بالقوة وبالخوف منها وبالتسليم لها .  
وذلك كله لا يعني أن العرب قد كان يخاف الخوف نفوسهم لجسهم . وإنما  
يتصرف الى هذه الهيئة السحرابية الخيفة المهيئة بالأشباح والى الافكار التي  
داعبت خيالهم حتى تمد وضعوا برواية ابن خالويه - للدهاية أربعة آلاف

اسم (١) . ومن الغريب أن يتصل معنى الإيمان بالخوف أيضاً ، فالإيمان من آمن والثلاثي منه : أمن ، والأمان هو النجاة من الخطر ومن الخوف . وهكذا تتصل المعاني في التقوى - التي منها التقية - والاسلام والإيمان بالينوع البعيد الذي ينعكس من البيئة العربية الصحراوية التي كان يملؤها الخوف حتى لقد كانت أول عبارة يفوه العربي المسلم بها إذا لقي غيره قوله : « السلام عليكم » (٢) ، ليطمئن القادم تمهيداً لاطمئنانه هو .

٣ - بعد هذا كله ، نعود الى التقية لنبحث السابقة الأولى لها ، لقد كان من الصدف أن التقية قد ارتبطت - أول ما ارتبطت - بابن عبد سابق هو عمار بن ياسر الذي قتل في صفين (سنة ٣٧-٦٥٧) دفاعاً عن حق علي ، وكان من الشيعة الأوائل الذين اتفق الباحثون على كونه من أشد أنصار علي إخلاصاً له وثباتاً في الدعوة له ونصرته . وذلك أن القرشيين عذبوا أباه وأمه حتى قتلوهما وعمار ينظر ، فلما حل عليه الدور في التعذيب لم يتركوه حتى سب رسول الله (ص) وذكر آلهم بخير ، فلما أتى رسول الله في المدينة - بعد نجاته من الموت - قال : ما وراءك يا عمار ، قال : شر يارسول الله ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهم بخير ، فقال رسول الله : فكيف تجدد قلبك ؟ قال : أجد قلبي مطمئناً بالإيمان . قال : فان عادوا فعند (٣) . ثم نزلت فيه الآية : « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » . (٤) وفي الآية استفهام وجوابه : أما الاستفهام فهو : من كفر بالله من بعد إيمانه ؟ وأما الجواب ، فصدره محذوف وهو مفهوم من السياق ثم تليه النتيجة ، ويمكن أن نضب الآية في هذا القالب : « من كفر بالله من بعد إيمانه ؟ من كفر بالله ونبيه وارتد عن الاسلام ، إلا من أكره

(١) الآداب السنية للاستاذ محمد عطية الأبراشي ص ١٢٩

(٢) عن اسلامية « السلام عليكم ؟ أنظر الطبري - طبع أوربا - ١٣٥٣/١ وقد ذكر هنا أن نحوه الجاهلية كانت ، نعموا صابحاً »

(٣) حلية الأولياء ، ١٤٠/١ ، تفسير الطبري ١١٢/٤ ، غرائب القرآن لنظام الدين التبريزي على غنائم الخبري ١١٨/١٤ ، تفسير القرطبي ١٨٠/١٠

(٤) النحل : ١٦ : ١٠٦

وقلبه مطمئن بالإيمان ، وهكذا قرر الاسلام وقرر النبي مبدأ التقية بوصفها  
 وسيلة لحماية النفس من خطر يؤدي بها من غير طائل . ويجب أن نلاحظ  
 أن عمارة كان عبداً وان الاسلام قد جاء لحماية الفقراء والمستضعفين والعيبد  
 من جشع مستغلبهم ، وهو لا يعنى مطلقاً أن يفنيهم أو يقدمهم ضحايا  
 لا لشيء الا لضرب أمثال نادرة على الشجاعة ، فهذه الصفة تتوقف على  
 شخصية الرجل نفسه ولا تدخل لها في ايمانه بالحركة الجديدة وقبوله لها .  
 وهي لا تعنى اياحة الحرب والجبن في الحرب - فهذا هو ميدان الشجاعة  
 حقاً - وإنما تعنى أنه - إذا تحالفت الظروف السيئة على مسلم ، وخاصة  
 العبيد والمستضعفين الذين يفرض فيهم الحروف والضعف فلا داعي  
 للانتحار ، بل لا ضير من التظاهر بعكس ما يضمرون حتى تروى  
 هذه الظروف ويتحقق بزملائه المسلمين ، وعندئذ يستطيع أن يبدي شجاعته  
 وقوته وجنده في ميدان تساوى فيه انصرص للجميع ولا تتحالف على شخص  
 وحيد واقع في قبضة أعدائه . فالتقية قد أقرت في الاسلام لأنه يحض على  
 الجبن ، وإنما لأنه هدف الى أن يحمي الضعفاء والفقراء والعيبد تحت أوائه .  
 ولم يكن من العادل أن يتطلب منهم أن يتبنوا بقدرة قادر من قوم ضعفاء  
 جبناء اعتادوا الذل والسكينة والايذاء الى أبطال أسطوريين مجرد نطقهم  
 بالشهادتين . أما الشجاعة والاقدام فالاسلام - في بيئته الجديدة - كصيلة  
 بإنبات ككل المثل الانسانية في نفوسهم . ومن الجدير بالالتفات أن الاسلام  
 لم يعن الحض على الجبن وإنما ترك المسلم لطبيعته وخلفه ونشأته ، فمن كان  
 الاياء والاقدام والصبر من خلقه وجيلته ومات في سبيل مبادئه صابراً فهو  
 شهيد مثاب ، ومن كان مؤمناً في اخلاص دون أن يسعفه قلبه على الجلد  
 حياة جيل عليها فليس عليه من حرج (١) . والقرآن يقول « فضل الله  
 المحاهدين على القاعدين » (٢) ويقول أيضاً ، فمن أضطر غير باع ولا عا  
 فلا أثم عليه » (٣) ولم يكن عمار ليروح بسر يتعرض لافشائه زملاؤه للموت

(١) انظر الى ما يقول ابن حزم في الفصل ١١١/٢ ، « وقد أراح الله عروجل كلمة الكفر  
 عند التقية وأباح بها لهم في غير التقية » .

(٢) آية ٢ : ١٧٢

(٣) آية ٤ : ٩٧

وإنما طوى إيمانه في قلبه كما نصبت الآية : « وقلبه مطمئن بالإيمان ، فالإيمان هو المهم وهو متوفر حافس . ومن المعلوم أن الإسلام قد جعل الإيمان درجة في العقيدة أعمق من الإسلام ، فالعبرة بالإيمان الذي يتصل بالقلب وهو يعنى التصديق بالعقيدة الجديدة القائلة بالتوحيد والنبوة والمساواة . ولعل من المستحسن أن نضيف إلى هذه الفقرات الآية التي تسند ظهور الإسلام لانقاذ النبايين واهتمامهم بهم : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » (١) وإلى الحديث الذي يقول : « اتبعوني أجعلكم أنسابا » (٢) ، لنضع يدنا على ما كان الإسلام يهدف إليه . فالثقة إذن أمر يتصل بعامل إنساني يبيع للرجل أن يحقن دمه في الظروف التي يؤدي فيها التظاهر بالإسلام إلى انقضاء على حياته وربما تعريض حيوات غيره من الدائنين بالعقيدة نفسها إلى الضرر أو القتل كما حدث فعلا في الإسلام الأول ، وأبو عمار وأمه وأخوه بشهدون . والثقة - بعد - عرف إسلامي يتصل بالإنسانية وفهمها أكثر من اتصاله بالدين وحدوده . وفهمها السليم - في رأينا - لا يتأدى إلا من هذه الوجهة بل إن الإسلام لم يفكر فيها قبل أن يمتحن عمار ، فلما فعل تنبه إليها وفسفها وأسسها على ذلك الأساس الذي مر بنا تفصيله .

يضاف إلى هذا كله أن خصال الإسلام الثلاث في تغيير الكفار المقهورين بين الإسلام أو السيف أو الجزية - تدخل في باب اقرار الثقة . فليس خافيا على الإسلام وشارعه أن الدخول في الدين الجديد على هذه الصورة تحت حد السيف أو مالا يمكن توفيره من مال يعنى دفع كلا الضررين يتحمل أهون الثلاثة وهو الدخول في دين القاهرين ، فلا يمكن أحدا أن يتصور أن معتق الإسلام وعلى هذه الصورة جاد في إسلامه المهم إلا إذا رأى فيه الروح مما كان يعانى ، شأن المسلمين الأولين ، وذلك أمر

(١) انقصر ٢٨ : ٤

(٢) رسائل ابلغا (تحقيق كرد من ، مصر ١٣٦٥/١٩٤٦)

رسالة ابن تقيونج ص ٢٦٧

يدخل في باب الخدس والتخمين . فلم يبق الا أن يكون الاسلام مؤمنا بمبادئه ومثله واثقا من تأثيرها في الناس اذا اتيج لهم أن يزوروا الامور ويجربوا الحياة الجديدة ولو بالاكراه أولا . فهو من هذه الناحية يغرى بالتقية ويقدمها الى الجاهلين به ثقة منه في كسبهم منى أمنوا واطمأنوا . فتفادى القتل والجزية والدخول في الاسلام بالفتح انما هو مبدأ اسلامي حمله الاسلام الى المغلوبين لاغرائهم باعتناقه ، فهذه تقية لا جدال فيها كما يبدو . ثم أن الاسلام لم يكف باتاحة الولاء - تقية - للمغلوبين على أمرهم من ارستقراطي المدينة - وكانوا يعرفون صراحة بالمنافقين وانما كان يتألف قلوبهم بالمال وجعنهم احدى الطوائف الثماني التي لما نصيب في أموال الصدقات (١) . وقد ظل المنافقون يقيضون الأموال الى أن أُلغى عمر نصيبهم حين قوى الاسلام وأحسن بأن في ذلك تقيلا من هيته . وتلك اشارة على اتاحة الاسلام تقية حتى للارستقراطيين السابقين ، بل أدخل فيها وأبعد منها مدى .

ويحسن بنا بعد هذا أن نصحب التقية في حياتها الاسلامية لتبين هل تعلق بها الشيعة وحدهم أم كانت أمراً اسلاميا انسانيا .

٤ - لقد تذبذب جولد تسيبر الى أن الخوارج كانوا أول من دان بالتقية وتوصل بها (٢) والذي دعا الخوارج الى التقية هو مادعا عمارا : الكره والحقد المتبادل بينهم وبين جماعة المسلمين حتى كان اصطيد الخارجي يعني القضاء عليه ، وقد قاتلهم على حتى أبادهم ولكنهم كانوا لا ينفدون حتى عمأوا الشباب والرجال من جديد ، ومن هنا تعلقوا بالتقية حفاظا على حيواتهم وخلصا من الفناء .

وقد اضطرت الظروف الخوارج ، وهم أعنى وأشجع أصحاب المثل الاسلامية ، الى الأخذ بالتقية . وقد اخبرنا الشهرستاني (ت ١١٥٣/٥٤٨)

(١) التوبة ٩ : ٦٠

(٢) العقيدة والتشريعة في الاسلام ص ١٨٠

أن هذه الفكرة قد تسببت في انقسام الخوارج، وذلك أن نافع بن الأزرق (ت ٦٥/٦٩٤) قد كان يكفر القاعدين عن الحرب وكان يقول: «التقية لا تحل والقعود عن القتال كفر» (١) فانصرف زعماء الخوارج واتباعهم الى نجدة الحروري الذي قتل في أيام عبد الملك بن مروان ٦٩/٩٠. وكان نجدة يرى أن التقية جائزة واحتج بقوله تعالى: «الآن تنفوا منهم نقاة» (٢) فبين لنا التزاوج الواضح بين الظروف والتقية وإسناد الاسلام لها. والشهر ستأني الى ذلك بعدد بدع الأزارقة أصحاب نافع المذكور ويرى أن سادستها «أن التقية غير جائزة في قول ولا عمل» (٣) وقد رسمت التقية في بيضة الخوارج الى حد أن صار النقاش - بعد نافع - يدور حول كونها: هل تطبق في القول أم العمل أو كليهما، فأبنا الضحاك وهو رئيس فرقة من الخوارج وقتل سنة ١٢٨/٧٤٦ يرى أنها يجوز (٤) في القول دون العمل وكان أسلافهم النجدات يرونها «جائزة في القول والعمل وإن كان في قتل النفس»

وعلاوة على ذلك فقد ابتدع الخوارج اصطلاح (٥) «دار التقية» (٦) «ودار العلانية» ، وكانوا يعنون بدار التقية المواطن التي يغلب عليها غيرهم من المسلمين ، فبينوا لنا مدى اضطرابهم الى التعلق بهذا الدرغ الذي حى كثيرا من المسلمين قبلهم وبعدهم . بل لقد كان من لصوق التقية بالخوارج أنهم - مع اعتبارهم غيرهم من المسلمين كفارا - جوزوا تزويج المطلقات - أي الخارجيات - من كفار قومهم - أي المسلمين ذوى المذاهب الأخرى - في دار التقية (٧) . وذلك يعنى أنهم - وهم غلاة المخلصين

(١) المنل والنحل ١/١٩٢

(٢) المصدر نفسه ١/١٩٥

(٣) المصدر نفسه ١/١٨٦

(٤) المصدر نفسه ١/٢١٦

(٥) المصدر نفسه ١/١٨٧

(٦) الفرق بين (مصر ١٩١٠) ، المنل والنحل ١/٢١٥

عبادتهم - سمعوا بالزنا الذي يعنيه تزوج الكافر بالمسلمة - بقدر ما يتعلق الأمر بعقيدتهم - لاني سبيل المحافظة على حيواتهم وانما لان الطرف يقتضي التقية ويقتضي الكتمان . وكان للصدقات عندهم تنظيم خاص في حال التقية وآخر في حال العلانية أيضا (١) .

وقد لا يكون هذا رأى كل الخوارج ولكنه رأى المشهور من فرقهم على كل حال والنزيم به النجدات والابراهيمية والضحاكية والاباضية والصفوية وغيرهم .

• - أما الشيعة فقد وجدناهم بعد قتل علي وقد علاهم معاوية فقتل رؤسائهم وأمر عماله ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة « وأمر بحرمان كل من عرف عنه موالاته علي من العطاء واستخاضه من الديوان والتكليف به وهدم داره . (٢) وبدأ لعن علي على المنابر . فصار التشيع يعنى الموت ، كما حدث سنة ٦٧١/٥١ لكثير من زعماء الكوفة من أمثال حجر بن عدى وعمرو بن الحمق الخزاعي وستة من زملائهما الذين أبوا الديانة بالتقية وصرحوا بالمعارضة وسبوا عثمان ومعاوية مقابلة لسب علي فكان أن قتلوا ، بل لقد دفن أحدهم - وهو عبد الرحمن بن حسان - حيا (٣) . واستمر القتل والقمع ، وكانت التقية جنة تقى من الموت وسبيلا الى الحياة بعد أن صار مبدأ الدولة « لا صلاة الا بلعن أبي تراب » (٤) . ولم تكن التقية من أهل الكوفة شيعية . وانما كانت عرفا انسانيا أقره الاسلام في القرآن . وجعل أولياء علي يمدون في أعمارهم بالبراءة من علي وكان ميدان البطولة مغنقا في ظل ذلك الطغيان الذي أعقب تنازل الحسن عن الخلافة سنة ٦٦١/٤١ وغلر الجو للمعصوم يفعلون فيه ما يشاؤون .

(١) الطبري ٦/٦٤٢

(٢) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦/٢

(٣) مروج الذهب ٦٧/٢

(٤) ابن أبي الحديد ٣٥٦/١

ويقتضينا الواقع والانصاف أن نسلم بأن التقية لم تكن الا درعا استعملها الكوفيون ليكسبوا الوقت وينظروا انكشاف الغمة عنهم . وقد رأيناهم يهضون ويقاتلون - بعد قتل الحسين - سنة ٦١/٦٨٠ حين استيقظت ضمايرهم وتماظمهم ما أقرنوا ، وكان منهم الثوابون الذين خرجوا لقتال الأمويين لا لشيء الا للتكفير عن قعودهم عن نصره الحسين . وكانوا يرددون الآية «فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم » (١) ولسان حالهم يقول : « اقلنا ربنا تقرطنا فقد تبنا » (٢) . وقد أبدوا من ضروب الشجاعة التي كانت التقية حصرتها في أنفسهم - ما صار مدعاة لاعجاب أعدائهم بهم ، فسمحوا لهم - من بعد هزيمتهم - أن يرتحلوا ويلحقوا بأعدائهم (٣) .

ثم تكررت الأحداث في الكوفة حتى ثار عبد الرحمن بن الأشعث (ت ٨٤/٨٠٣) على الحجاج . ولم يكن عبد الرحمن شيعيا ولم يعرف ذلك عنه ولم يكن أبوه وجده الا من ألد أعداء علي وأبنائه ولكن أنصاره ، بعد انهزامه ، تسلحوا بالتقية حين انتصر الحجاج عليهم وسامهم ما سام القرشيين عمارا في الاسلام الأول : البراءة من الاسلام والاعتراف بالكفر ، (٤) وقد كانوا يفعلون ذلك نجاة من الموت كما فعل عمار : أما القرشيون فكانوا يحمون عقيدة قدمة يؤمنون بها ، وأما الحجاج فلم يبيح الا اذلال الرجال والأزراء بأعدائه وأنه لمزاج غريب حقا : حمل الناس على الكفر شرطا لاطلاق سراحهم ، واهدأر دمهم مع الامان . وتلك - على كل حال - صورة مما آلت اليه حال العالم الاسلامي في أواخر القرن الأول الهجري . ومن أوضح الأمثلة على رسوخ التقية في نفوس المسلمين عموما في هذا الوقت أن الشعبي (ت ١٠٤-٧٢٢-٣) - الذي يمثل في الصحاح مكانا مرموقا - قد كان يبقى على صورة فيما ازراء بالانسانية وبالخلق النبيل . وبينما كان الحسن البصري (ت ١١٠

(١) البقرة : ١٧٢

(٢) مروج الذهب ١١٠/٢

(٣) مروج الذهب ١١٠/٢ ، وابن الاثير ٦٨/٤-٧٤

(٤) الطبري (لندن) ١٠٩٦/١-٩٧

٧٢٨-٩) لا يعطى أن نفسه الدنية في مجلس الحجاج ولا يداجى ولا يذفق وإنما كان يتجه في أوقات الخرج إلى السكوت ، وجدنا الشعبي يلومه على صراحته في حضرة الحجاج وتصريحه بظلمه ويقول : « أغضبت الأمير وأوغرت صدره » . فلما قال له الحسن : « اليك عني يا عامر » يقول الناس : عامر الشعبي عالم أهل الكوفة . أثبت شيطان من شياطين الأنس هواه هواه وتقاربه في رأيه . ويحك يا ابن عامر : هل انقبت إن سلئت بصدقك أو سكت فسلمت به » . فكان جواب الشعبي عجيبة : « يا أبا سعيد ، قد قلنا وأنا أعلم ما فيها » ، وقد كان الحسن محققا حين أغلف له بقوله : « فذاك أعظم الحجة عليك وأشد في التبعة » (١) وروى العزالي أيضا خبرا آخر جمع الشعبي والحسن البصري أيضا في مجلس عمر بن هبيرة ، فصدر من الحسن ما صدر منه في مجلس الحجاج السابق فلامه الشعبي وهو يقول له : « يا أبا سعيد ، اغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصته » (٢) . بل لقد اعتبر فريق من العرب الحسن البصري صاحب نية لتحجيزه السكوت للسلامة وردوا سبب ذلك إلى أصله غير العربي (٣) . ولم يكن الشعبي ولا الحسن البصري شيعيين بل لعلهما كانا من أعدائهم . وهذه نية واضحة في وقت تقبل الشيعة فيه الموت دون البراءة من علي أو الاعتراف بالكفر وقتل كميل بن زياد النخعي سنة ٧٠١/٨٢ وقتل وغيرهما من الشيعة من الشواهد على ذلك .

وجرت بعد ذلك أمور أحداث بلورت اتجاهات الناس ، وقامت الدولة العباسية وظل الشيعة معارضين ورجحت كفة العباسيين واستطاعوا أن يكسبوا معظم العالم الإسلامي ، فأحس الشيعة من جديد بالضغط يزيد ويانقل بستم وبالذلة الخديعة تقوى وبشدة ساعدها ، فكان العود إلى التمية أمرا تتطلبه الظروف . وكان ذلك أيام بدأت الحركة العقنوية تستغرق العالم الإسلامي

(١) أحياء علوم الدين نيزاري (مصر ١٣٤٦) : ٢/٣-٣

(٢) المصدر نفسه ٢/٣٠٤

(٣) المصدر نفسه ٢/٣٠٤

في منتصف القرن الثاني الهجري ، وجعلت الطوائف والفرق والنحل تقبلين  
ونستقل وتكون لها مبادئها وتسندها بالحجج العقلية والمنطقية . وهكذا وجد  
الشيعة أنفسهم مضطرين لالتي التقية فقط ، بل الى تأسيبها على أساس من المنطق  
والكلام : فبدأت الأحاديث تروى والأخبار تترى ، فرووا ، عن الصادق -  
جعفر بن محمد المتوفى سنة ١٤٨/ ٧٦٥ أقوالا في التقية ومحبيدها ، ورووا  
عن الباقر - محمد بن علي بن الحسين المتوفى ١١٩/ ٧٣٧ - أنه قال :  
جعلت التقية ليحفظ بها الدم ، فإذا بلغ اندم فليس تقية « (١) وأنه قال :  
«التقية ديني ودين آبائي « (٢) وسواء أصبح هذا الجبرام لا فإنه يعكس  
حال الشيعة عكسا صحيحا ويبين الظروف التي أحاطت بهم . وهو الى ذلك  
صحيح من حيث أن التقية دين القرآن فعلا فهي دين النبي جد الباقر ، ويجب  
أن يضاف الى هذا أن عليا قد علل استجابته للتحكيم بعد خذلان أصحابه  
له في صفين بالمحافظة على نسل رسول الله من أن ينقطع (٣) .

٦ - وكان فريق آخر من الشيعة يباشر المعارضة الإجماعية بالسيف  
والثورة وهم الزيديون ، فهض زيد بن علي بن الحسن في الكوفة سنة ١٢١  
٧٣٩ حركته ثورات أخرى حتى قام محمد بن عبد الله بن الحسن في المدينة  
سنة ١٤٥/ ٧٦٢-٣ ونصره أصحاب الحديث والفقهاء والزهاد . وكان  
سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١/ ٧٧٧ يقول : « أن يرُد الله خيرا بهذه الأمة  
يجمع أمرها على هذا الرجل « (٤) . وثار إبراهيم بن عبد الله أخو محمد في  
البصرة ، وكان أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠/ ٧٦٧ يعضده ويحث الناس  
على الخروج معه ويقول : « أن تقتل مع إبراهيم يعدل قتله لو قتل يوم  
بسر : وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة « (٥) . ومهما يكن من أمر

(١) أصول الكافي ص ٢٠٦

(٢) أصول الكافي ص ٢٠٥

(٣) الطبري (عصر ١٣٢٣) ٤٣/٢ رقة صفين ص ٦٠٩

(٤) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ص ٢٨٩

(٥) مقاتل الطالبين ٣٦٩ ، الطبري (أوروبا) ٢٠٠/٣

فإن المهم - فيما يتعلق بموضوعنا - أن الامام مالك بن أنس استثنى في الخروج مع محمد وقيل له : ان في أحنافنا بيعة لأبي جعفر (المنصور) (ت ١٥٨/ ٧٧٥) فقال : إنما بايعتم مكرهين ، وليس علي كل مكره يمين ، فأسرع الناس الى محمد ولزم مالك بيته (١) . وقد أشار ابن خلدون (ت ٨٠٨/ ١٤٠٥-٦) الى ذلك وذكر فتوى الامام مالك بجواز نقض بيعة الاكراه (٢) . وواضح أن الامام مالكا كان يرى أن الناس قد اجابوا المنصور وبايعوه لحوفهم من القتل فكانت بيعتهم على غير أساس من عقيدة قلبية ، وهكذا تعود من جديد الى الثقة التي خرج بها مالك بيعة الناس على الصورة التي ارتد بها عمار عن الاسلام في محنة في مكة . وهو بذلك قد أقر الثقة وأغرى الناس ببيعة محمد بن عبد الله بن الحسن . ولعل في هذا الحادث ما يجعل ارتباط الثقة لا بالاسلام الأول فقط بل بأصحاب الحديث من أهل السنة في أيام الامام مالك المعاصر لكثير من الحوادث التي دعت الشيعة الى التعلق بالثقة وبما يدخل هذا المدخل أن القرطبي (ت ٦٧١/ ١٢٧٢-٣) قد ذكر في تفسيره أن الشافعي والكوفيين على هذا الرأي من ايثار الثقة في حال الخوف من القتل ، وذكر كذلك أنه قد « أجمع أهل العلم » على ذلك (٣) . ولابد أن نلاحظ أن ذكر موافقة « الكوفيين » على الثقة ومعهم الشافعي (ت ٢٠٤-٨١٩) إنما جاءت من أن هذا البلد قد كان مسرحا لكثير من المظالم وعديد من الثورات على الظلم وأهله . وقبل أن نطرق الى حادث آخر يؤيد رسوخ الثقة في العالم السني ، نحسن بنا الالتفات الى أن الثقة - حتى الآن - لم تكن قد لصقت بالشيعة هذا اللصوق الذي وثقته الحوادث فيما بعد حتى بدا للناس أنها عرف خاص بهم ، ومن هنا فاجأتنا الأحداث بمثال بديع للتواصل بين الظروف والثقة . وذلك أن المؤمنون (ت ٢١٨/ ٨٣٣) - لما امقطه أخوه من ولاية العهد واستطاع الانتصار واستعادة حقه - التزم أفكار منافسي خصومه في العقيدة وطرأز التنكير ، فقرب الشيعة والمعزلة ونادى بخلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب (٤) وقد كانت محنة خلق القرآن

(١) الطبري (أوريا) ٢/ ٢٠٠ ، مقاتل الطالبيين ٢٨٢

(٢) العبر ١٨٠

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ١٨١

(٤) البداية والنهاية ١٠/ ٢٨٦

محكامينا للزعم القائل بأن التقيّة من عقائد الشيعة وحدهم . ولقد أورد الطبري (ت ٣١٠/٩٢٢-٣) وابن الأثير (ت ٦٣٠/١٢٣٣) في حوادث سنة ٨٣٣/٢١٨ في المحنة قولها : « وأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم : أن القرآن مخلوق الا أربعة نفر منهم أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ ٥٥-٦) وسجادة والقواريري وعبد بن نوح المصروب ، فأمر بهم اسحق بن ابراهيم (متمتعهم بالنيابة عن المأمون) فشدوا في الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجاب سجادة الى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلق سيبله ، وأصر الآخرون على قولهم . فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا ، فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريري الى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلق سيبله وأصر ابن حنبل وعبد بن نوح على قولها ولم يرجعا . فشدا جميعا في الحديد ووجها الى طرسوس وكتب معهما كتابا بأشخاصهما وكتب كتابا بتأويل القوم فيما أجابوا اليه .

وذكر سليمان بن يعقوب - صاحب الخبر - أن بشر بن الوليد (القاضي مشرف سنة ٢٣٨/٨٥٢-٣) تأول الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر « الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » (١) وهكذا تعود من جديد الى عمار بن ياسر والآية التي نزلت فيه وتبين الانسانية التي تكن في تلك الحادثة والخلود التي حددها الاسلام في القرآن للمدى الذي يستطيع الانسان فيه - اذا اكره - أن يحفظ به دمه « وقلبه مطمئن بالايمان » . ومن الطريف والمفيد معا أن ثبت ما رواه المقرئ المقيري (ت ٨٤٥/١٥٣٨-٩) عن ابن حنبل في هذه المحنة وكيف عبر عن حان من أجاب الى أن القرآن مخلوق وكيف خرج اجاباتهم .

« قال اسحق بن حنبل - عم الامام أحمد - : « كنت أتكلم مع أصحاب اللطآن والقواد في خلاص أبي عبد الله فلم يتم لي الأمر ، فأستأذنت على اسحق بن ابراهيم ، فدخلت اليه وكلمته ، وقال للحاجب : اذهب معه الى ابن أخيه

(١) الطبري (لوربا) ٣/١١٣٠ ، ابن الأثير ٣/١٤٤ طبع مصر ١٣٠٣

ولا يكلم ابن أخيه بشيء إلا أخبرني به . قال اسحق : فلخلطت على أبي عبد الله ومعى حاجيه ، فقلت : يا أبا عبد الله ، قد أجاب أصحابك فيما بينك وبين الله ، وبقيت أنت في الحيس والضيق . فقال أبو عبد الله : وأعم اذا أجاب العالم تقية والجاهل مجهل فتي يتدين الحق ! . فقال : فأمسكت عنه . قال : فذكر أبو عبد الله ما روى في التقية من الأحاديث فقال : كيف تصنعون بحديث خباب : أن من كان قبلكم ينشر أحدكم بالمنشار ثم لا يصدده ذلك عن دينه ؟ قال : فينست منه (١) وهكذا يذكر لنا ابن حنبل - الرجل الوحيد الذي وقف في وجه المأمون أولاً وتحمل الميائط - لما امتحنه بها المتصم أخيراً (٢) - أن التقية هي التي حملت أصحابه من غلاة أهل السنة على اجابة المأمون الى القول بخلق القرآن . وقد آثر ابن حنبل نفسه أن يختار ما أمكنه قوة نفسه واتباعه لرأى خباب (ت ٢٧/٦٥٧) الذي تحمل العذاب في الاسلام الأول دون أن يضعف . ويجب أن نلتفت الى أن ابن حنبل قد عني « بمن كان قبلكم المسلمين الأوائل الذين تحملوا

(١) المقرئى : مناقب الامام احمد بن حنبل ص ٥ (مخطوط) ينقل عنه ياقوت في ابن حنبل والحنة - لين ١٨٩٧ ص ٨٩ ، مناقب الامام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ص ٣١٦  
(٢) مناقب الامام احمد بن حنبل لابن الجوزى (مصر ١٣٤٩/١٩٣١) ص ٣٢٧

ذكر ابيحقوق المثنوي بعد سنة ٩٠٤٦/٢٩٢ أن المتصم لما امتحن ابن حنبل وحزبه امتنع عن اتقوله بخلق القرآن وتمسك بقوله : أنا رجل علمت علما ولم أسمع به هذا ، ولكنه انقطع لما نظره اسحق بن ابراهيم وسأله : « هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال ؟ فقال : (ابن حنبل) : بل علمته من الرجال . فقال (اسحق) : شيك بعد شيء - أو جلة ؟ قال (ابن حنبل) علمته شيئاً بعد شيء . قال (اسحق) : لبي عليك شيء لم تعلمه ؟ (ابن حنبل) : بئى عل . قال (اسحق) : فهذا خلق القرآن (عنا لم تعلمه وقد علمته أمير المؤمنين . قال (ابن حنبل) : فاني أقول بقول أمير المؤمنين . قال (اسحق) : في خلق القرآن ؟ قال (ابن حنبل) : في خلق القرآن قال : فأشبه عليه وخلع عليه وأخطقه الى منزله (التاريخ ، النجف ١٣٥٨ ، ١٩٨/٣٤)

وهذه رواية مشكوك فيها لما اشتهر به ابن حنبل من انبيات وأقرب المصحة - في رأينا ما رواه - بشير العقوي وسهم الياضي (ت ٧٦٨/١٣٦٦-٧) في حوادث سنة ٨٣٤/٢١٩ الذي قال : « وفيها أبو في التي بعدها امتحن المتصم الامام أحمد وضربه بين يديه بالسياط حتى غشى عليه ، فلما صمم ولم يجيب الى مرادهم أطلقوه ونفذ على ضربه ، وقد أوضحت ذلك في كتاب الحرم (٩) في الأصول كيفية ذلك الامتحان ومن حرص عليه من علمائهم وما خلفه اثنان ذلك من العقوبة « مخطوطة كبرديج ورقة ١٣٠ ب .

القتل والعذاب والالتقاء الى الأسود الضواري دون أن يترجحوا عن عقيدتهم  
ويذكر القرآن أصحاب الأخنود ممن عذبوا اليهود الجانين « بالنار ذات الوقود»  
وهذا هو الذي أراد الاسلام أن يتفاداه في أوائله وأعطى المسلمين الأوائل  
من الأرقاء والعبيد والمستضعفين والفقراء الميزة على قدر طاقتهم مع اطمئنان  
قلوبهم بالامان لتجنبيهم الاطاقة لم يه . وقد جاء الاسلام لانقاذهم  
مما هم فيه لا لتعريضهم لما هو أشد منه وتركهم طعمة للسيف والنار والسوط .  
ولم يكن ثبات ابن حنبل لمنع اصحابه - والآية تتردد بين جوانبهم -  
أن يستجيبوا للمأمون والمعتمد والأرائق (حكوا من ١٩٨/٨١٣-٨٤٧)  
في المحنة ، ولقد صدروا عن انسانيته وصدرا ابن حنبل عن انسانيته أيضا .  
وكل صدر عن طاقته وكل أرانا التفتية على حقيقتها والاسلام الذي أقرها  
وبين كلا الفريقين لنا تأصلها في الدين لا في التشيع وحده .

وإذا تبين ذلك فاننا نستطيع أن نضع شعبياً - لاشك في شيعيته -  
كريم النفس أيبا بازاء هؤلاء الخنايلة وغيرهم من فقهاء أهل السنة الخائفين  
المضطربين الى الديانة بالتفتية ليتضح الأساس الذي قامت عليه هذه العقيدة  
المتصلة بالظروف الاجتماعية وبقوة الاحتمال الشخصي . فقد كان الشريف  
الرضي المتوفى سنة ٤٠٦/١٠١٥-٦ رجلا أيبا كريما حر ان رأى لم تستطع  
الأحداث التي مرت في أيامه أن تنال من شدة ذهنه وعزة نفسه فضمن  
كتابه « حقائق التأويل في متشابه التنزيل » كلاما يدور حول التفتية الأولى  
يعكس لنا هذه الحقيقة التي تقع من تواصل التفتية مع الظروف . لقد بحث  
الشريف التفتية على أنها شأن يكون بين المؤمن والمشركين لا بين المسلم والمسلم  
فلم يتطرق الى تفتية المسلم من المسلم مطلقا ، ثم أنه قد صرح في جلاء - كما فعل  
ابن حنبل - ان حبيب بن عدى حين قتل كان أفضل من عمار بن ياسر  
حين أعطى التفتية ، وذكر ان « اعطاء التفتية رخصة وأن الأفضل ترك اظهارها»  
وذكر أن « اقامة المرء عليه (الاسلام) حتى يقتل أفضل من الأخذ بالرخصة  
في العذر عنه حتى يسلم » (٣) ولم يفت الشريف أن يلحظ أن التفتية لا تكون

(١) البروج ٨٥ : ٤

(٣٠٢) حقائق التأويل ص ٧٥ - ٧٦

بالمالأة بالعمل وإنما تكون «قولا باللذان» (١) ونقل عبارة أبي العالبة أن «التقية باللذان لا بالعمل» (٢) . وكان الشريف فى ذلك كله صدر عن أفقه الواسع ونفسه المطبئة ولم يكن ذهنه متجها الى الظروف الصعبة التى تمر بالشعة كما خرجت بالخائبة قبل ذلك ، فلم يشأ أن يحاول الوصل بين ما فى القرآن وما تأتى به الظروف . ولعل هذا الذى ورد فى حقائق التأويل بين صحة مدح الشريف للخليفة الفاطمى وتهافت مشاركته فى الطعن فى نسبه تحت ضغط العباسيين كما شهد له بذلك أبو الفداء (ت ، ٧٣٢/١٣٣١) وصحح له قوله :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف مى  
أبىس المذل فى بلاد الأعادى ومصر الخليفة العلوى (٣)

وبين أيضا أنه كان معزل عن شؤون الشعة وأن نقابته للطالبيين كانت تصل بأرحامه وذوى قرياه دون سواد الشعة وأمنهم فى العراق ، وأن ذلك كان موكولا بالشىخ المقيد (ت ٤١٢/١٠٢١-٢) وبالطوسى (٤٦٠/١٠٦٧-٨) من بعده وغيرهما بما كان الشعة يتلقون منهم النصح والارشاد يأخذون عنهم أمور دينهم ودنياهم .

٧ - وقد آن لنا أن نتوقف الآن لنقرر أن التقية قد كانت تعنى انقاذ المسلمين من شرك الكفار ، فصارت الآن سلاحا يقتر به المسلم من أخيه المسلم وسلاحا يتلجح به الضعيف أمام القوى وذلك أمر يعكس ما آل اليه حال العالم الإسلامى من الفرقة والانقسام وانتشرت بحيث غدا الدين الذى جاء لهم الشعث فى العالم كله وعمر الغوارق الطبقة والعرقية والدينية - مفرقا الناس فرقا وطوائف ومذاهب وتحالا يتربص كل فريق منهم بالآخر اللدوائر

(١) المرجع نفسه ص ٧٤

(٢) حقائق التأويل ص ٧٤

(٣) تاريخ أبى الفداء طبع أوربا ٢٠٨٧

وأنظر ديوان الشريف الرضى ، مصر ١٣٠٦ ، ص ٤٥٦

ويتحين الفرص للإيقاع به . لقد كان أصل كل ذلك أن قوما أرادوا لأنفسهم الملك والسلطة ، وكان الطريق أمامهم شاقا ، فانتبها في المجتمع الاسلامي نباتا يورث الشقاق والعداوة بين المظلومين أنفسهم من قبائل الاسلام وبلداته وشعوبه ، فانشغل المظلوم بسب المظلوم والفقير بقتال الفقير والمحروم بلعن المحروم ونهيه وسلبه . واستراح أصحاب الدسيمة الى صلاتهم وأطمأنوا على جاههم ومجدهم وسلطانهم التي وجدوا لها حامة من بين مستحبيها . ولم يكن ذلك وقفا على طائفة دون أخرى وإنما كان الأساس الاستعلاء الشخصي والطمع الفردي والتسلط الارستقراطي . هكذا استغل مروان بن الحكم (ت ٦٨٥/٥٦) وارحامه عثمان وأشاعوا الكراهية في الأمة الاسلامية حتى ضحوا بعثمان نفسه ، ثم تناول معاوية هذا الحيط بيده فاستغل ضحية آل عبد شمس وجعل قتله ستارا لملكبيته ، فشطرت العالم الاسلامي شطرين : شطرا عثمانيا يمثله هو وأنصاره من طلاب الدنيا في الشام وغيرها شطرا علويا يلتفت حوله المظلومون والمحرومون والمساكين وأصحاب العقيدة والمثل العليا ووظائف أخرى من أصحاب الأغراض المختلفة . ثم تعددت الأحداث فحلت الخصومة محل الأخوة وصار السب تدينا وصار لعن أبي تراب علما للأمويين ولعن معاوية علما للكوفيين . ثم كان الشيعة - كلما اشتد الضغط عليهم - أمضوا في السب حتى شمل معاوية وعثمان وعمر وأبا بكر باعتبارهم ظالمين وعاصيين لحق علي . ثم دخل يزيد ومروان بن الحكم والمنصور والرشيدي والمتوكل في هذه القائمة ، حدث كل ذلك مع أن عليا قال لأنصاره « كرهت لكم أن تكونوا شتامين » (١) ، ومنع ولده ابن الحنفية من التعرض لعمر في صفين (٢) ووصف أبا بكر بأنه أنحوه في رثائه ل محمد بن أبي بكر (٣) وقد كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ٩٤-٣٧١٢) يقول للسبابة من أهل العراق : أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم :

(١) رقعة صفين ١١ ، الأخبار الطوال ١٥٥

(٢) الطبرى (مصر) ٧/٣

(٣) مروج الذهب (مصر ١٣٤٦) ٢/٢٠٤

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالآيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » (١) ، وكان زيد بن علي يصرح بأنه ما سمع أحداً من أهل بيته يتراً من أبي بكر وعمر ولا يقول فيهما الا خيراً (٢) . وهكذا ترد عن سائر أئمة الشيعة نواه عن السب . ولكن المسألة لم تكن مسألة أوامر ونواه وانما كانت مسألة جاه وسلطان لاصحاب الأطماع ومسألة نار يؤججونها لئيم لهم الأمر والسلطان . فقد شعر أصحاب الأغراض الشيعة - باستمرار الضغط عليهم - أن المعتدين عليهم وأعداءهم الحقيقيين لبوا الظلمة من العباسيين وانما هم أبو بكر وعمر ومعوية ومروان بن الحكم وعمرو بن العاص ويزيد . وكان ذلك يخدم مصالح الطائفتين المتنافستين على الحكم ، فتصرف الانظار عن الظالم الحقيقي وتوقع العداوة والبغضاء بين أهل البلد الواحد فتذهب ربحهم ويضعفوا ، وهكذا يمكن التغلب عليهم جيماً . ثم أن التشيع قد حوى خياطاً من الناس وصار ستاراً يخفى وراءه أصحاب الاطماع والأحقاد والبِدع باعتباره أمراً يسهل جمع الناس حوله . وقد أخبرنا ابن زيب في كتابه : « الغيبة » بحيلة الأمر ، فين لنا « أن أكثر من دخل في هذه المذاهب (الشيعة) انما دخله على أحوال : فمنهم من دخله بغير روية ولا علم ... ومنهم من أرادهم طلباً للجاه والدنيا وحطامها .. على غير اعتقاد للحق ولا اخلاص . ومنهم من دان به على ضعف من ايمانه ووهن من نفسه بصحة ما نطق .. » (٣) .

وجاء اليوميون فاتخذوا التشيع مذهباً لهم وشجعوا الشيعة على التصريح بما غرسه فيهم أصحاب الحقد والطمع ونموه فكان اظهار التشيع على صورة هزيمة من اعلان السب والاحتفال المبالغ فيه بتكرى قتل الحسين . ولم ينس الحكام أن يؤذوا أهل السنة على انشيعة فتحول الصراع بين الشيعة وأهل السنة واطمان البوسيون على سلطانهم كما فعل سابقوهم ، وهكذا تحقق لهم

(١) مع انشيعة الامنية لمحمد جواد عنية بيروت ١٩٥٥ - ص ٤٢ - ٤٣ (المشر : ١٠٠)

(٢) الطبري ٢٧٢/٨

(٣) الغيبة ص ٥

غرضهم فتمكن لهم الأمر من سنة ٣٣٤ ٩٤٥-٦ الى سنة ٤٣٧-١٠٤٥-٦ فانطوى حكمهم ولكن العداء بين الأخ وأخيه ظل مستمر الاوار . ونظرة الى الفن التي كانت تحدث بين الشيعة وأهل السنة تبين الى أى مدى كان للدسامين دورهم فيها ، فاننا نسمع عن كثير من الفن وتفصيلها وفظائنها . وخلال كل هذا الضجيج نرى الجماعات وهجمات الخوارج وانتشار قطاع الطرق واستشراء الأمراض ونرى أيضاً أمراً أهم وأبلغ : ذلك أن هذا الشعب المسكين كان بسيطاً طيباً مسالماً ، ففى سنة ٤٢-١٠٥٠-١ كما يروى ابن كثير اصططح الروافض والسنة ببغداد وذهبوا كلهم لزيارة مشهد على ومشهد الحسين وتعرضوا فى الكرخ على الصحابة كلهم وترحوا عليهم ه (١) ويذكر فى حوادث سنة ٤٨٦-١٠٩٥-١ قوله : ه وفيها اصططح أهل الكرخ من الرافضة والسنة مع بقية المحال وتزاوروا وتواصلوا وتواكلوا ه (٢) ولكن ابن كثير لا ينسى فى الخالين أن يبدى عجزه من ذلك لانه لم يستطع أن ينفذ الى الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذه الفن المفتعلة ، ثم أن الأمر لم يقتصر على الشيعة وأهل السنة بل سمنا عن فن بين الاشاعرة والحنابلة سنة ٤٤٧-١٠٥٥-١ (٣) وفن بين الاثراك والعامه وهكذا .

وكلما أمعنا فى تقصى الأسباب والنفوذ الى الدوافع الحقيقية الخفية وراء هذه الفن وجدنا أمامنا عبارة المجاعة أو النهب أو هجوم جيش على بلد ، وعلى العكس من ذلك نجد رخص الأسعار وكثرة المحصول والرخصاء مقترناً بسى الصلح والوحدة (٤) . ومهما يكن من أمر فقد استغل الفرس والترك هذه الفرقة الجاهزة بين طوائف الشعب الاسلامى ووطدوا ملكهم بينهم . والغريب أن عناصر الاستغلال كانت فى صالِح المستغلين دائماً : فاذا ذهبت دولة البويهيين الشعبية جاءت دولة السلاجقة السنية فاستغلت الخصومة نفسها

(١) البداية والنهاية ١٢/٦١

(٢) الترجع نفسه ١٢/١٤٨

(٣) الترجع نفسه ١٢/٦٦

(٤) يراجع المرجع نفسه فى السنوات المبينة .

— كان دله مصنف في فضل يزيد بن معاوية أقي فيه بالفرائب والعجائب  
كان يعتقد أن إباحة لعن يزيد يقضى الى لعن الخليفة لأنه ظلم مثله « (١) »  
والأطراف من هذا أن الخليفة كان متكبرا يسمع هذا الكلام . وأدى  
هذا الى أن يقف مروان بن الحكم ويزيد والوليد بن يزيد وعبيد الله بن زياد  
وعمر بن سعد والمغيرة بن شعبة بازاء أبي بكر وعمر وفي مقام واحد ومترلة  
واحدة . وخلف هذا السب العام رد فعل قديم عند أهل السنة والجماعة  
فأربابهم لا يألون عن عدالة ثلاثة قرون . كما هو معروف — فأسدلوا  
ستارا كثيفا على حقائق يجب أن تعرف وتجهل ليدين الحق ويعرف ما كان  
واقعا . وهكذا صار على المثقفين وطلاب المعرفة أن يتجنبوا كل ما يتصل  
بفترات الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وأخطائهم وذنوبهم وكان هذه  
القرون الثلاثة من الناس كانت أجيالا من الملائكة لا تعيش في هذه الدنيا وإنما  
تسرى في السموات وتخرج الى الجنان « ودخل بذلك الى الاسلام تقليد  
يشبه بالميثولوجيا اليونانية التي تسرد قصص الخلاف والذنائب والمؤامرات  
التي كانت تجرى بين الآلهة وتطلب الى الناس أن يعبدوهم ويتقربوا اليهم  
بالقرابين والطاعة . وكذلك طلب أهل السنة والجماعة . ردا على هذه  
الأمور — أن تقرأ كتب التاريخ ونطلع على ما كان يجري في العالم الاسلامي  
لمجرد القراءة والاطلاع وطلب اليها أن تعتبر ثلاثة أجيال من المسلمين  
مخاطبين بهالة من العصمة مع أنهم نفوا أن يكون النبي نفسه معصوما  
هذه هي المشكلة التي خلفها السب : الحساسية من التعرض لأية شخصية  
من شخصيات الصحابة والتابعين وتابعيهم .

٩ — ودخل عامل الرياسة الميدان فراد الأمر تعقيدا ، وكان وجود  
دولة شيعية رسمية في مصر تنافس الدولة العباسية باعثة على اسراف الشيعة  
في العراق وغيره من توابع العباسيين في اتخاذ التقية . وكان الأمر بالنسبة  
للاستماعيين أشد وأنكى . فمن المعروف أن التقية لازمة من لوازمهم . وكان  
هذا يعني أن للاستماعي المصري أو المغربي أو غيرها — شرعا — أن ينكر

اشماعيليته ليدفع عن نفسه خطر الموت ، فرأينا لهذه العقيدة علاجاً (اسلامياً) عباسياً زينه الفقهاء والساثرون في ركاب الدولة بالمنطق البراق حتى وجدنا رجلاً محترماً كالغزالي (ت ١١١١/٥٠٥) يكتب في الرد على الباطنية بناءً على الأوامر « الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالإشارة إلى الخادم » (١) على اعتبار أن الحاجة إلى الكتاب عامة في حق الخاص والعام وشاملة جميع الطبقات » (٢) . وكان الغزالي يعترم دحض عقيدة الباطنية بالمنطق والعقل بدحض مبدهم في « إبطال الرأي واثبات التعليم » (٣) ، ولكنه لم يكف بالجدل العلمي وإنما انزلنا إلى مهاوى السياسة فقرر أن « قبول التوبة من المرتد لا بد منه .. وأما توبة الباطنية وكل زنديق يستبر بال كفر ويرى التوبة ديناً .. ففي هذا خلاف بين العلماء » (٤) ، ثم ذكر رأى السائرين في ركاب الدولة وأنه قد « ذهب ذاهبون إلى أنه لا تغيب توبته ، وزعموا أن هذا الباب – لو فتح – لم يمكن حسم ما دهم وقع غائلهم ، فإن من سر عقيدتهم التدين بالتقية » (٥) هذا بالنسبة للمسلمين من الشيعة الإسماعيليين في زمن السلم ، أما في الحرب فإن من قبض عليه منهم فإن حكمه القتل وكذلك النساء ، فإنا نقتلنهما مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفر على مقتضى ما قررناه » (٥) ، وأما الصبيان ، فهما بلغ صبيانهم (من العمر) عرضنا الإسلام عليهم فإن قبلوا قبل إسلامهم وردت السيوف عن رقابهم إلى قربها وأن اصرروا على كفرهم مقلدين فيه آباءهم مددنا سيوف الحق إلى رقابهم وسلكتنا بهم مسلك المرتدين » (٦) ، وهكذا بلغت الحال بحماة الدين . ولم ينس الغزالي ، بعد أن سلخ الدولة بكل هذه الحجج والبراهين ، أن يذكر أن هذا الأمر ليس نهائياً – أيام السلم – وأن « الأمر منوط برأى الامام » (٧) لكلا يد الطريق عليه إذا بدا له أن يسلم أو يهادن أو يساوم .

(١) فضائح الباطنية للغزالي تحقيق كوله تميم (لیدن ١٩١٦) ص ١

(٢) المرجع نفسه ص ٢

(٣) المرجع نفسه ص ٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥١

(٥) المرجع نفسه ص ٤٩

(٦) المرجع نفسه ص ٥٣

تحت لواء التصوف . على عكس ما حاول الأملبي : فيبين لنا رسوخ التقية في البعثات الصوفية التي تبنى الأمر الإلهي لا يستطيع الناس احتمالها وخسبوا بها أن نورد عبارته ، قال الشعراني : « فعليكم أيها الأخوان باحتفال الأذى ممن يجادلكم في صحة هذا الميزان .. فإنه معدود لا يكاد يسلم بكم صحبها لغرابتها » (١) ، وقال في مراسع آخر : « ونوفقم في الف مجادل مجادني على ترجيح مذهب بغير دليل واضح لا أرجع إليه في قلبي وإنما أرجع إليه .. أن رجعت - مداراة لحججه ، وأقول له : نعم - مذهبك أرجح ، أعنى عنده لا عندي » (٢) ومن الشعراني نستطيع أن نعود التمهيد إلى التصوف واتصافه بالتقية . لقد كانت التقية لازمة من لوازم التصوف . دون التصريح بذلك عند بدء السالك بتقرب من الخيون ووحدة الشهود . وقد كان التصوف يشمل على أساس التقية دون أن يعلن ذلك على الملأ . وذلك أنه حين بدأ يتخذ سبيله إلى الحلون وتبين خطر ما هو مقبل عليه حاول بعض المتصوفة أن يخفوا من غلواتهم ونواهم بسطاء الناس من الغامة لكلا يلحق بهم الأذى من ذلك . ولكن نظرف الحنفي الذي ثبت رسوخ التقية في التصوف بل ضرورتها له تأخر إلى بداية القرن الرابع الهجري حين قبض على الخلاج (ت ٣٠٩/٩٢٠) وحقق السطك مع قوم كانوا يعتقدون الحقبة واعترفوا بأنه صح عندهم أنه يحيى المولوي (٣) . وقد أبو الخلاج على ذلك فأذكره وقال : « أعوذ بالله أن أدعي الزبوية أو النبوة وإنما أنا رجل أعبد الله عز وجل » (٤) . وتلك تقية واضحة نابعة من التشيع وهي مصداق قول البقر الذي مر بنا : « جعلت التقية ليحفظ بها الدم .. ومن ذلك أيضا أن الخلاج قال للمشايع : « فريدون مناظرني ؟ أعنى ماذا أنظركم ؟ اعترف أنكم على الحق وأنا على الباطل » (٥) فلما بلغ الأمر القدر رأيت الخلاج يطلق بعقيدته

- (١) كتاب الميزان في ملاحات الطب من غير المشهور وشرحها ريبان بيداء . ومطبع (طبع) ورقة ١٤  
 (٢) كتاب الميزان في ملاحات الطب من غير المشهور وشرحها ريبان بيداء ٢٠٢  
 (٣) أربعة قصص تتعلق بالخلاج أحدها في الميزان من ٤٩  
 (٤) الكسب لابن الأثير ٩٢٨  
 (٥) أربعة قصص من ١٩

ويظهر مكونات قلبه ، فطبق بذلك الشق الثاني مما نطق به الباقر : « فإذا بلغ الدم فليس تقية » ولعل الصحيح أن كل ذلك يتصل ببداية الأول للتقية الذي وجدناه في القرآن . وقد كان الشبل (ت ٣٣٤/٩٤٥-٦) من هذا الفريق أيضا في التمسك بالتقية وهو القائل : « كنت أنا والحسين بن منصور شيئا واحدا الا أنه أظهر وكتمت » (١) بل لقد رووا عنه أنه وقف على العلاج وهو مصلوب فنظر اليه وقال « ألم نهك عن العاملين » (٢) وتلك دعوة صريحة الى التقية بحفاظ على النفس ودفعاً للأذى عن الرءلاء وهو جوهر التقية كما أوضحنا . بل أننا لنجد الحفيد المتوفى سنة ٢٩٨/٩٤٠ يصدر عن تقية واضحة حتى كان « لا يتكلم قط في علم التوحيد الا في قعر بيته .. ويقول : أتعبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى وخاصته ويرموهم بالزندقة والكفر (٣) .

يا : يبقى شئ آخر يتصل بالتصوف وعلافته بالتقية به ، ذلك أنه نشأ في خراسان قوم من الصوفية دعوا أنفسهم بالملامية في القرن الثالث الهجري وكانوا يتظاهرون باتيان الحرمان وكان مؤسس هذا المشرب حمدون القصار النيسابوري المتوفى سنة ٢٧١/٨٨٤-٥ (٤) ، وقد ذكر نيكولون أنهم « أظهروا اخلاصهم لله تحت راية من الحرية الدينية المصطنعة » (٥) وعبر أبو حفص الحداد (ت حوالي ٢٥٨/٨٧١) عن مذهبهم بأنهم « قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع التقرب والعبادات وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم » (٦) ويشرح ذلك كله المناوي (ت ١٠٣١-١٦٢١) بأن الياقني (ت ٧٦٨/١٣٦٦-٧) زوى عن رجل وصفه بأنه كان عارفا ربانيا وروى أنه كان يتستر فيكبر عمامته ويطلب أكمامه ،

(١) (٢-١) أربعة نصوص ص ١٩

(٣) طبقات الشرائف ١٠/١

(٤) طبقات الصوفية للسلي ص ١٢٣

(٥) في التصوف الاسلامي - ترجمة الدكتور عفيف ص ٢٠

(٦) اللامية والصوفية وأهل الشريعة تهكتور عفيف ص ١٦

ثم قال : « وقال: مذهب الملامية إخفاء الطاعة وإظهار الرغبة في المباح (١) ومن هذا يتبين أن الملامية مذهب يراد به الانقطاع إلى الله بإظهار خلاف الباطن ، وهي تقية من حيث أنها التظاهر بعكس ما في الباطن ، ولكنها اتخذت طابعا عكسيا وأن كانت صلتها بالتقية واضحة . واتخذت الصفات المبروردي (ت ٦٢٢ / ١٢٣٤ - ٥) إلى تقيتهم الواضحة فقال فيهم « سموا أنفسهم ملامية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية ، وما هم من الصوفية بل هم في غرور وغلط ينسرون بلبسة الصوفية توقيتا (توقية) أي (تقية) تارة ودعوى أخرى (٢) .

١١ - وقد أشرنا في مطلع هذا البحث إلى أن الزيدية قد أنكروا التقية ولم يعملوا بها واتهموا الشيعة الإمامية والأسماعيلية بالخروج والضعف لنسرتهم بها ، ولكنهم مع مرور الزمن واستقرارهم في اليمن وشعورهم بالأمان وفتور حماسهم الحزبي ، الذي لازم دعوتهم ، جعلوا يحرمون صلاة الجمعة في بلد السلطان ليس على شرطهم (٣) وذلك يدخل في الحدود والمحافظة على النفس وهو لب التقية كما مرنا .

١٢ - ونحن بنا أن نعرض للعالم الإسلامي في القرون المتأخرة ليم لنا وصل آخر هذا البحث بأوله . فلقد صار المجتمع الإسلامي - بعد اكتشاف التنزله - مجتمعا تنوزعه الدويلات والجهل والعصبيات ، وصار ضيق الألفق الطابع العام له ، وصارت العزلة التي عاناها سببا في شدة العصبية المذهبية . ودخل في الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي عامل جديد هو تنفس التشيع ونحرره من الضغط الذي كان يعانيه من الحكومات المضادة له وبدأ التوازن بين الكفتين يظهر . وكان نتيجة ذلك أن رأينا المجتمع السني الذي

(١) الكواكب النورية (مخطوط في المتحف البريطاني) ٢٥٥ أ

(٢) حرافد المعارف (عوض حاشي أحيه العلوم - مصر ٢٣٤٩ ٢/٤ ، وأنظر كذلك كذلك طبعة مصر ١٣٥٨ / ١٩٣٩ ، ص ٥٥ ، وعبارة توقيتا التي هي تصحيف ظاهر « لتوقية » أريد بها التقية كما يظهر من سياق العبارة .

(٣) العلم الشامخ ص ٣٥٢

كان ينمى على الشيعة تمسكهم بالتيمة - يلتزم بها . وذلك أمر طبعى يدخل في جيلة الدفاع عن النفس المركبة في كل انسان ولكن غير الشيعة لم يحتاجوا اليه لأنهم كانوا في منجاة منه بالسلبية التي أبدوها لمظالم الحكومات المتواليه التي انصب ضغطها وظلمها على معارضيها من الشيعة . وهكذا بدأت سلسله من الصور التي تبعث على الأسى في مجتمع جاء الاسلام لصهره في وقته وانقاده من التفرقة والظلم والتفوق الروحي ، فرأينا خربندا التتارى المتوفى سنة ٧١٦/١٣١٦-٧ يميل الى التشيع ويشجعه ويتخذ له مذهبا ويحمل عليه الناس . (١) فكان أن تظاهر كثير من غير الشيعة بهذا المذهب حفاظا على أرواحهم وأمورهم فخفى أمر كثير من الباحثين والمفكرين على المؤرخين حتى تنازع بعضهم مؤرخو الطرفين فأضافهم كل فريق الى مشربه ومنهم قطب الدين الرازى (ت ٧٦٦/١٣٦٦) المعاصر لخربندا المذكور الذي اضاف القاضى نور الله الى التشيع (٢) وغيره الى أهل السنة . وقد شك الخوانسارى في هذه النسبة الى التشيع وعلاه بأنه « قد كان ذلك في مبدأ أمر الرجل وزمان كونه في ديار العجم وانعكاس أمر التقية هناك وغاية ارتفاع أمر الشيعة الأمامية باعتبار تشيع سلطانهم الشاه محمد خد ابنده وأخذ به بأنفاس جماعة العامة » (٣) . وظهر في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن ابن تيمية صورة جديدة من اصرار ابن حنبل على عقيدته السلفية وعانى ما عانى في سبيل اقامة عقيدته على أساس من اثبات وقوة الشخصية وسجن ونفى وشرذ حتى مات سنة ٧٢٣/١٣٢٣ وفاز باعجاب خصومه وأنصاره . ابن تيمية هذا أضيفت اليه التقية ، فقد ذكر المفضل بن أبى الفضائل في كتابه « النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد (جرجيس) » في حوادث سنة ٦٩٩/١٢٨٨ ٣٠٠ أنه لما فتح التتار الشام وأمروا جماعة وكانت الأحوال مضطربة في دمشق فذكر أن ابن تيمية وبلر الدين به جماعة ذهبوا الى مقدم التتار في قلعة دمشق لتحقيق الصلح فلم يظفر بشئ ، وأن ابن تيمية اعاد الكرة فتوجه الى تخيم مقدم التتار بسبب

(١) لبداية وانهاية ٧٧/١٤

(٢) روغات البانات ١٨١/٣

المأسورين الذين أرجفوا بقدم المصريين لطردهم التار فاعتقلهم هؤلاء ، قال  
 الفضل : « وتحدث مولاي مع الشيخ في أمر (يزيد) ابن معاوية وسأله :  
 هل يجوز لعنته أم لا ؟ فعلم الشيخ (ابن تيمية) أن فيه موالة ، فكلمه  
 بما لاق بخاطره من الكلام بغير شيء ، يكرهه » (١) وتلك تقيية خفيفة يغلب  
 عليها المخاملة . ولكن ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية أظهر تقيية لاشك فيها  
 حين اشتد الخلاف بينه وبين المالكية فقبضوا عليه في سنة ٧٢٧/١٣٢٦-٧  
 وأخلوه الى جهم توطئة غماكته ، واحضروه يوم الاربعاء الى قاضي  
 القضاة شرف الدين المالكي وادعى عليه فأجاب : أن القاضي الحنبلي حكم  
 بحق دمي وتوثي واصلني ، فأعيد الى الحبس حتى يسأل الحنبلي كيف كان  
 الحكم . وسره القاضي الحنبلي وغيره الى قاضي القضاة يعقوب في المذكور  
 الا يكون الحكم الا عنده ولا يكون عند المالكي (لأنه لا يقبل توبة المرتد  
 ويحكم باعدامه) ، فاحضره في سابع عشرين الشهر وعززه بالعادية بالدرة  
 وركب حمرا وطيف به البلد وراحوا به الى الصالحية . وآخر النهار ردوه  
 الى الحبس وأعلموا نائب السلطنة بما فعلوه .. وحبه (النائب) بالقلعة مقيدا  
 وسكنت الفتنة » (٢) لقد نقلنا النص كله لأهميته في هذا المقام وليان ظروف  
 هذه التقيية التي أملاها خطر الموقف ، ومن هنا اعترفت ابن قيم الجوزية  
 بأنه ارتد عن الاسلام وأعلن توثيه وجده اسلامه . وهذا الخبر كله رواه  
 أحد أنصار ابن قيم الجوزية وكرر على ابن كثير أن يرويه الا مختصرا جدا  
 لشدة أثره في نفسه وكان من أنصار ابن تيمية المخلصين (٣) .

وفي سنة ٧٨٨/١٣٨٦-٧ فتح تيمور لنتك حلب وكان قد اتخذ التشيع  
 غير المتعين (الذي لا يخرج عن موالة على ورد معاوية ويزيد فقط) مذهبها  
 له ، فجمع فقهاءها - على عادته كلما فتح بلدا - ليمتحنهم ويرى رأيهم

(١) المنهج السديد ، تحقيق أوسكار بلرشي ضمن مجلة Pahalagiaionictalis باريس  
 الجزء ١٤ ، القسم الثاني ص ٦٦٧  
 (٢) الأعلام بتاريخ الاسلام لابن قاضي شهبه مخطوط في مكتبة اليوديان في أكسفورد  
 رقم 143 marsh الجزء الثاني ورقة ٢٠٥  
 (٣) الأعلام بتاريخ الاسلام الجزء الثاني ورقة ٢٠٥ ب

في علي ومعاوية ريزيد وفي مسائل أخرى كان تيموريكررها في كل مكان يفتحه . (١) وكان السؤال الأخير : ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد « وهنا قال القاضي شرف الدين وكان الى جانب الحافظ الخوارزمي - راوى هذا الخبر - «أعرف كيف تجاوبه فإنه شيعي» (٢) وهذا ارهاص بالقضية وأمرها كما لا يخفى . والمهم أن الحافظ الخوارزمي قد تخلص من الحرج بقوله : « كان الحق مع علي في نوبته » (٣) فسر تيمور ، وكان تخلصه - كتخليص عماد ابن الحسن الطوسي الفقيه الشيعي المتوفى سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ ، بمناورة أخرى (٤) يحسن الفقهاء في كثير من الأحيان حبكها متى دعت الضرورات إليها .

ومما زاد في البلية أن عاملا مساعدا على الغلو في التعصب قد نبث من قيام دولتين اسلاميتين قويتين تدين احدهما بالتشيع والأخرى بمذاهب أهل السنة ونعني بهما الدولة الصفوية في ايران وما بعدها من دول شيعية ، والامبراطورية العثمانية في بلاد الروم . وكان العراق - لسوء الحظ - هو الحسر الذي يربط بين الدولتين وكان فيه معتنقو كلا المذهبين ، فأصابه رشاش التعصب البغيض ، فاضطهد اسماعيل الصفوي أهل السنة سنة ٩١٤ / ١٥٠٨ - ٩ سنة ٩١٦ / ١٥١٠ - وقتل كثيرا منهم (٥) وكذلك فعل طهاصب سنة ٩٣٦ / ١٥٢٩ - (٦) وعباس الصفوي سنة ١٠٣٢ / ١٦٢٢ - (٧) واضطهد العثمانيون الشيعة وأسرفوا في قتلهم وفعلوا الأفاعيل ، ومن ذلك أصاب أربعين ألفا من الشيعة الأتراك من قتل أو سجن مدى الحياة على يد

(٣٤٢٠١) روضة المناظر لابن الشحنة مخطوط في أكسفورد ص ٢٣٨ وكذا عجائب المقدر في أخبار تيمور

(٤) أنظر لؤلؤة البحرين ص ٢٤٥

(٥) تاريخ الدولة الفارسية في العراق لعل طريف الأعظمي - بغداد ١٩٢٧ ص ١٠١ ونقد اعتمادنا هذا الكتاب وكتاب موجز تاريخ البلدان العراقية الآتي لعرض صور الاضطهاد العظيم التي نالت الشيعة وأهل السنة بدلا من مصادرها الأصيلة المعروفة وذلك لابرار الأثر التي تركه هذا الاضطهاد في نفوس الباحثين من الترفيقين الذين مثلها مؤلفا الكتابين المذكورين .

(٦) تاريخ الدولة الفارسية ص ١٠٤

(٧) المصدر نفسه ص ١٠٩

سليم الأول سنة ٩١٨ (١٥١٢-٣) اصاب ذلك حتى الصبي الذي في الساعة ولم ينج منه الشيخ الذي بلغ السبعين (١) . ومن ذلك ما فعله مراد الرابع سنة ١٠٤٧/١٦٣٧-٨ ، وكان من تمام ما أتاه احراقه جميع كتب الشيعة الإمامية (٢) . وهكذا اضطر الشيعة الى النجاة بالتقية وأسرفوا فيها اضطرارا حتى لقد جعل بعضهم يشك في شيعة البعض الآخر في مواطن التشيع . ومن الطريف أن بعض الشيعة قد شكوا في شيعة بهاء الدين العامل المتوفى سنة ١٠٣٢/١٦٢٢-٣ لأن الشيخ عمر - وكان من علماء أهل البصرة من أهل السنة - قال (أن بهاء الدين محمدا من أهل السنة الا أنه كان يتقى من سلطان الرافضة ..) (٣) فأوضح لنا ذلك أن اتباع كلتا الطائفتين كانوا يلتزمون التقية في هذه الظروف التي يهمل فيها دم الرجل لأمر لا يدخل في التدين ولا في الايمان بالمبادئ وانما يضحى به على مذبح الطمع والقساط الظالم . ويضاف الى ذلك أن بهاء الدين العامل الف في سياحته الطويلة في سوريا ومصر رسالة في وحدة الوجود ظهر فيها بمظهر شافعي كامل (٤) وبما يذكر أيضا أن الشيعة قد قدموا ثلاثة من أبرز علماءهم المتأخرين قرابين على مذبح التعصب المذهبي ؛ فقتل الشيخ محمد بن مكى العامل في دمشق سنة ٧٨٦ (٥) ١٣٨٤ وقتل الشيخ زين الدين بن علي في بلاد الروم سنة ٩٥٢/١٥٤٤-٥ (٦) في أيام طهاسب الصفوى انتقاما لضحايا أهل السنة ، وقتل القاضي نور الله القصرى في الهند سنة ١٠١٩/١٦١٠-١١ (٧) وكذلك كان يفعل العثمانيون بالشيعة من سكان دولتهم . (٨) وكان الضغط

(١) الطريقة البكاشية ليجرج ص ٦٦ عن فون هامر

(٢) سوجز تاريخ البلدان العراقية لعبد الرزاق الحسى (بتداد ١٩٢٠) ص ٢٤

(٣) روضات الجنات ٩٦/٤

(٤) الرسالة مطبوعة مع رسائل أخرى صوفية في مجموعة الرسائل « مطبعة الكرمى ، مصر بلا تاريخ ، ومخطوطها في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٤٧٢ في الفهرست القديم ٨٥/٢

(٥) مجالس المؤمنين ص ٢٤١

(٦) أمل الآمل ١٤-١٦

(٧) روضات الجنات ١٩٦

(٨) طرائق الحقائق ١/١٣٢

شديدا على الشيعة في كل مكان تسوده دولة سنية حتى كانوا يعرون بانقاذهم  
التقية - مما رأينا انسحابه على غيرهم أيضا . ومهما يكن من أمر فان الشيخ  
محمد الحسين كاشف الغطاء قد قال في ذلك : « واللوم والتعير بالتقية  
ان كانت نستحق اللوم والتعير - ليس على الشيعة فحسب بل على من سلبهم  
موهبة الحرية والحلأهم الى العمل بالتقية » (١) .

١٣ - بقي أمر مهم يكمل هذه الصورة التي تعكس التقية في سفرها  
الطويل ، ذلك أن حركة جريئة عظيمة قامت في العالم الاسلامي سنة ١١٠٣  
١٧٤٠-١ وقادها رجل من لب بلاد العرب وقصد بها اعادة الاسلام نقيا  
بسيطا كما كان أيام النبي وقيل أن نعلق به الأفكار الغربية والبدع والأضاليل  
والتناسير والتأويلات هو محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠١/١٧٨٦-٧  
وقد اندفع فقهاء الاسلام اليه بين معارض وموافق وكتب في مدح مذهبه  
المولزي لمذهب ابن تيمية السلفي وقدحه عديد من الكتب ، ودخلت الحركة  
أمر وتطورات ليس هذا موضعها . وقد أرسل محمد بن عبد الوهاب رسائل  
الى الأمراء والوزراء يدعوهم الى مذهب « الموحدين » وكان من انكب كتاب  
أرسل الى بغداد سنة ١١٥٥/١٧٤٢-٣ حيث كان سليمان باشا ( المتوفى  
سنة ١١٧٩/١٧٦٥-٦ ) وزيرا ، فرد عليه عبد الله أفندي الراوى برسالة  
حاول فيها أن يلخص ما أوردته محمد بن عبد الوهاب في رسالة التوحيد  
جامعة كبرج تحت رقم (9) OR 138 هو في الواقع كتاب « التوضيح عن توحيد  
الخلق في جواب أهل العراق » وان كان عنوان المخطوط فيها يقول :  
« رد الرهاني » دون اشارة الى المؤلف ، وفي مكتبة الأوقاف العراقية نسخة  
من هذا المخطوط . وبعد هذا الاستطراد نذكر أن هذا الكاتب الوهابي  
الذي تبنى الاسلام على حقيقته الأولى وبساطته قد ذكر عبارة تحمل دلالة  
كبيرة قال : « بل قد حرروا أمر (محمد بن عبد الوهاب) عند شيوخ أفاضل  
أكابر منهم الشاميون : الشيخ علي أفندي الداغستاني الذي قد ذكرنا  
اسمه وابن عمه الشيخ عبد الكرم الداغستاني والشيخ البرهاني ، والشيخ

(١) أصل الشيعة وأصولها ١٩٣

عثمان الديار بكرى تزيل المدينة المنورة ، والشيخ محمد الشافعي نزيل بالبس أرسل اليه نسخة . فأمرها وأقرأها وحرروه وأجازوه ، ولكن عذرهم عدم المساعدة لهم في قيام ما تضمنه من إقامة الدين وإخلاصه لرب العالمين ، والا هو الذي يدينون به في أنفسهم وأهليهم وأحبابهم من عشائهم لأن ذلك يعتاز الى سيف قائم وأمام عادل ، وذلك متعذر الا بتوفيق الله وإيجاده.. (١) فينت لنا عبارتهم «لا يقدرُونَ على نهي الناس عما اعتقدوه وعملوا به» وقالوه «أن الثقة هي مبدأ اسلامي يتصل بالإنسان قبل الإسلام وأن المصدر عنها صدور عن طبيعة البشر وأن كان الرجل حنبلياً أو وهابياً ، والذي يلفت النظر أن صاحب الرد لم يحق على هذا الذي أورده عن هؤلاء الفقهاء من شئ أقطار الإسلام بل هو الذي صاغ هذه العبارة ترجمة عن مشاعرهم وضائرتهم فهي موافقة ضمنية على ما أصدره ، وهكذا ترتبط النهايات بالبدايات وتنعكس الأوائل على الأواخر وتبدو لنا الثقة في معزل عن الخصومة بين الشيعة وأهل السنة فتلقى عنها ما أنقلها به القرون .

١٤ - ولعل من غير الملل أن نضيف الى هذا كله أن الثقة - في فهمها الواسع - قد انتجت أدباً يتسم بالنسب بالرمز والاشارة في مختلف الأقطار والأزمان ، ولعلها من أهم ما يبني للأدب الرمزي بناءه وغدائه بالمواهب والفرص ولنا في كليله ودمنة ورسائل اخوان الصفا وكتب أكثر التصوفية وكتب النحل من أمثال الخروفيية وغيرهم أمثلة تضرب . ونستطيع أن نضيف الى هذه الآثار كتباً من الغرب من أمثال يوتوبيا لثوماس مور ، وقد تسبب ذلك الكتاب في اعدامة «ورسائل فارسية» لمونتسكيو الكتاب الذي نقد فيه هذا الفيلسوف المجتمع الفرنسي على لسان ريكارد وازيك ورضي ، ثم أساطير لافونتين التي تشبه كليله ودمنة وأساطير ايسوب ، تلك الكتب التي تعكس هذه الثقة الانسانية التي لاحت في سماء الإسلام يوماً فرعى برعايتها الانسانية

(١) التوضيح من توحيد الخلاق في جواب أهل العراق (ص ٢٤) ونلاحظ الركنة الثامنة في الألوپ).

ومزج الروح الديني بالشعور الانساني والضعف البشري فجعل الدين  
منظما لحياة الناس قلبا وقالباً .

\* \* \*

أما بعد فهذه هي النقية في بدنها وتطورها عقيدة اسلامية انسانية طبقها  
المذاهب الاسلامية على اختلافها حين ساءت الحوادث تطبقها . ولم تكن عقيدة  
شيعة : ولعل اضطرار الشيعة الى اتخاذها درعا يحميهم - في الماضي  
الذي انزاح كابيوسه - أمر يدعو الى التأمل والاعتبار .

## المراجع

### المخطوطات :

- الأعلام بتاريخ الإسلام لابن قاضي شعبة ، مكتبة بودليان في أوكسفورد رقم March 143
- التوضيح عن توحيد الخلاف في جواب أهل العراق لسليمان بن عبد الوهاب ، كبردج nr. 738
- جامع الأسرار ومنبع الأنوار لغيرين على الأمل ، مكتبة دائرة الهند في لندن رقم Arberry: 1349
- روضة المناظر لابن الشحنة ، مكتبة بودليان في أوكسفورد رقم Arch seid. A. 19
- الكواكب النورية لبيدالرزوف المنادي ، مكتبة المتحف البريطاني في لندن رقم Add. 23,369
- الميزان في المذاهب الثمانية عشر للشمران ، مكتبة المتحف البريطاني في لندن رقم or. 4298

### المطبوعات :

- الآداب السامية لعماد عتيبة الأبراشي ، طبع مصر ١٩٤٦
- أحياء علوم الدين لغزالي ، طبع مصر ١٣٤٦
- أربعة نصوص تتعلق بالحلاج ، تحقيق ماسينيون ، باريس ١٩٤٩
- أصل الشيعة وأصولها لعماد حسين كاشف الغطاء ، بيروت ١٩٥٦
- أصول الكافي للكليني ، طهران ١٢٧٨
- اعتقادات الصدوق القمي ، تبريز ١٣٦٤
- أمل الأمل لعماد بن الحسن الحر العاملي ، طهران ١٣٢٠ .
- البداية والنهاية لابن كثير مصر ١٩٣٢ .
- تاريخ ابن خلدون ، مصر ١٩٣٦
- تاريخ أبي القداء (مع ترجمة لاتينية) طبع أوروبا بلا تاريخ .
- تاريخ الثورة الفارسية في العراق لعلي طريف الأعظمي - طبع بغداد ١٩٢٧
- تاريخ العراق بين احتلالين نعباس المزاري ، بغداد ١٣٥٤/١٩٣٦
- تاريخ العرب (مفصل) لفيليب حتي ، بيروت ١٩٥٠
- تاريخ الطبري (لندن ١٨٨٤) أو مصر ١٣٢٣ (حسب الطبعة المثبتة في الهامش)
- تصحيح الاعتقاد لشيخ المفيد (مع مقدمة هبة تدين انشورستاني) (مع اعتقادات الصدوق) تبريز ١٣٦٤

- تفسير الطبري مصر ١٣٥٤/١٩٣٥
- تفسير الكشاف للزمخشري مصر ١٣١٨
- حقائق التأويل في مشابه التزويل للشيخ الشريف الرضي ، النجف ١٣٥٥/١٩٣٦
- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني مصر ١٣٥١/١٩٣٢
- دائرة المعارف الإسلامية (بالانكليزية) ١٩٢٩
- روضات الجنات للخوانساري ، ايران ١٣٠٧
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد مصر ١٣٢٩
- طرائق الحقائق للحاج مصوم علي (بالفارسية) طهران ١٣١٩
- طبقات اشعراي ، طبع محمد صبيح ، مصر بلا تاريخ
- الطريقة البكاشية (بالانكليزية) ليرج ، أمريكا ١٩٣٧
- صحائب المقصور في أخبار تيسور لابن عربشاه ، مصر ١٣٨٥
- العميدة والشريعة في الاسلام لاجناتس جولده تسيير وترجمة : محمد يوسف موسى ،  
وعبد العزيز عبد الحق وحل حسن عبد القادر ، مصر ١٩٤٦
- عوارف المعارف (على هامش أعياء العلوم) مصر ١٣٤٦
- غرائب القرآن لغمام الدين النيسابوري (على هامش تفسير الطبري المذكور)
- الغيبة للطوسي ، تبريز ١٣٢٣
- الفرق بين الفرق للبندادي مصر ١٩١٠
- فضائح الباطنية للزالي تحقيق جولده تسيير (لندن ١٩١٦)
- الكامل لابن الأثير مصر ١٣٤٨
- لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف البحراني (طبع ملك الكتاب - بومباي)
- مجالس المؤمنين للقاضي نور الله (بالفارسية) طهران ١٣١٨
- مروج الذهب للمسعودي ، مصر ١٣٤٦
- مع الشيعة الإمامية لمحمد جواد مغبية ، بيروت ١٩٥٥
- مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ، مصر ١٩٤٨
- الخلائط والسوفية وأهل الفترة لداكتور أبو العلا مفيض ، القاهرة ١٩٤٥
- الملل والنحل لشهر ستاني مصر ١٩٤٨-١٩٤٩
- مناقب الامام أحمد بن حنبل لأبي الفرج بن الجوزي ، مصر ١٣٤٩/١٩٣١

مناقب الإمام ابن حنبل (مختصر) نقل عنه بالوفاء في كونه ابن حنبل واحدة  
بالمجازية .

- شمسى المقام محمد بن اسماعيل الخليلي . شهر - ١٣٢٠
- موحى تدوين البلدان العراقية لعميد روزان الحسى . بغداد - ١٩٣٠
- وثقة صدين لتصر مزاحم المنقرى ، تحقيق محمد عبد السلام هرون . مصر - ١٣٩٥